التفضيل الجماليّ بين الأزهار والنّواوير في كتاب البديع في فصل الربيع لأبي وليد الحميريّ

د. هديل أبو آذان[1]

1 مدرّس في قسم اللغة العربيّة وآدابها، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة دمشق.

الملخص:

التفضيل الجماليّ عملية مركبة تشتمل على مقارنات وتمييزات واختياراتٍ بين البدائل الجماليّة المتاحة، يعبّر عنها بأحكام جماليّة خاصة ، تصدرها الذات على هيئة تعبيراتٍ لفظيّة، أو اختياراتٍ سلوكيّة معينة.

ويتجلّى التفضيل الجماليّ بأبهى صوره الفنيّة في كتاب (البديع في فصل الربيع) لأبي الوليد الحميريّ، وهو كتابٌ في المختارات الشعريّة والنثريّة التي تختص بفصل الربيع. وقد جاءت المقطوعات الشعريّة والنثريّة التي اشتمل عليها الكتاب لتصف مدحًا ـ وهو الغالب ـ أو قدحًا ـ وهو القليل ـ مجموعة من الزهور والأنوار.

وفي سبيل استقراء النصوص الشعريّة والنثريّة في الكتاب ومقاربتها في ضوء مفهومات علم الجمال اتُخذ المنهج الوصفيّ التحليليّ منهجًا للبحث الذي أفضى إلى مجموعة من النتائج، من أبرزها:

- ينطلق الشعراء الأندلسيّون في مفاضلتهم بين الأزهار والنواوير من ملاحظتهم الدقيقة لتفاوتها في درجات الجمال.
- يتخذ التفضيل الجماليّ في كتاب البديع في فصل الربيع صورتين: التفضيل المطلق، والتفضيل المقارن.
- يقوم التفضيل في كتاب (البديع في فصل الربيع) على نوعين من التفرّد، هما: التفوّق، والتمايز.
- يقوم التفضيل الجماليّ الخالص على التفوّق، في حين تشوب التفضيل القائم على التمايز عناصر غير جماليّة، الأمر الذي أسهم في اكتمال ظاهرة أسلوبيّة في شعر النوريات، تتجلّى بوضوح في كتاب (البديع في فصل الربيع)، يمكن أن نسميها "التعليل الجماليّ".
-

الكلمات المفتاحيّة: التفضيل الجماليّ، البديع في فصل الربيع، التفضيل المطلق، التفضيل المقارن.

تاريخ الايداع: 2022/11/20
تاريخ القبول: 2023/1/8

حقوق النشر: جامعة دمشق – سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب الترخيص
CC BY-NC-SA 04

Aesthetic Preference Between flowers and white flowers in Abi Waleed Al-Hemery's book "the incomparable/exquisite of spring"

Dr. Hadeel Abu azan [1]
1 Assistant Professor – Damascus University College of Arts and Humanities – Department of Arabic Language and Literature.
hadeel.aa.komayt@gmail.com

Abstract:

Aesthetic preference is a compound process contains comparisons, highlights/distinctions, and choices, among the available aesthetic substitutes, which are expressed by special aesthetic rules/judgements by the self as verbalisations or specific behavioural options.

Aesthetic preference is presented with the most splendid genres in Abi AlwaleedAl-Hemery's book "the exquisite of spring", it is a book of poetic and prose anthologies specialised in spring. The pieces of poem and prose in this book were brought to describe panegyric -which was the major- or lampoon -which was the minor- of a group of flowers and white flowers.

For the purpose of inference/ deduction/ induction of poetic and prose texts in the book and approximating them in the light of aesthetic concepts, Qualitative analytical method was chosen as an approach to research, which led to some results among some:

- Andalusian poets have based on their accurate observations of the variety of white flower's aesthetic.
- Aesthetic preference in "the exquisite of spring" takes two shapes:absolute preferenceand comparative preference.
- Preference in the exquisite of spring, for a certain group of flowers or white flower is due to two kinds of singularity: superiority and variation.
- Pure aesthetic preference is based on superiority, while variation-based aesthetic has unaesthetically elements. This contributed in clarifyingstylistic phenomenon in Al-Nouriyat poem which appears clearly in "the exquisite of
- spring" and can be called "aesthetic reasoning".

Keywords: Aesthetic Preference, The Exquisite Of Spring, Absolute Preference, Comparative Preference.

Received:20/11/2022
Accepted:8/1/2023

Copyright: Damascus University- Syria, The authors retain the copyright under a
CC BY- NC-SA

التفضيل الجماليّ ضربٌ معقّد من التقييم الجماليّ ومرحلةٌ متقدمة منه، ينتج عن تجربةٍ جماليّةٍ تعايش فيها الذات المتذوقة موضوعين جماليين أو أكثر من الموضوعات المنتمية إلى جنسٍ واحد، وتحكم على كلّ واحدٍ منها على حدة، ثم تقارن بينها، وتختار الموضوع ذا القيمة الأعلى. وينبعث التفضيل من المستوى الانفعالي في الوعي الجمالي الفردي وبالتحديد من الاهتمام الجمالي[4] ولا يقف عند إطلاق الحكم الجماليّ؛ فغالبًا ما يحفّز النشاطَ الجمالي الذي يتجلّى في صور عدة، أدناها انشراح النفس لمجالس الأنس والشراب واللهو، وأعلاها الفنّ الذي "ينطوي على قيمة جماليّة مكثفة"[5]. فالتفضيل، إذن "عملية مركبة تشتمل على مقارنات وتمييزات واختياراتٍ، بين البدائل الجماليّة المتاحة"[6]، يعبّر عنها بأحكام جماليّة خاصة تصدرها الذات على هيئة تعبيراتٍ لفظيّة، أو اختياراتٍ سلوكيّة معينة[7].

ويتجلّى التفضيل الجماليّ بأبهى صوره الفنيّة في كتاب "البديع في فصل الربيع"[8] لأبي الوليد الحميريّ[9]، وهو كتابٌ في المختارات الشعريّة والنثريّة التي تختص بموضوعٍ بعينه، وهو فصل الربيع؛ إذ تخلق التّعدّديّة النّثرية، التي تميّز موضوعات الربيع ـ ولا سيما الأزهار والنواوير ـ من غيرها من موضوعات الطبيعة، بيئةً مثاليّةً تتيح للذات معايشة خياراتٍ واسعةٍ من الموضوعات المتشابهة التي تنتمي إلى جنسٍ واحدٍ أو أجناسٍ مختلفةٍ، وهذا الأمر هو ما يحفزّها على تفعيل آلياتٍ عقليّةٍ تفاعليّةٍ من مثل المقابلة والمقارنة، ترتكز مع ما يستتبعها من نشاطاتٍ مثل: الاختيار والتفضيل، أو الاستبعاد والإهمال، إلى معايير متباينة ترجع إلى طبيعة الموضوع الجمالي من جهة، وخصوصية الذات المتذوقة في معايشتها له من جهةٍ أخرى.

ويضمّ الكتاب بين دفتيه مجموعة قيّمة من الشعر الأندلسيّ في أزهى عصوره؛ عصر ملوك الطوائف، لأبرز الشعراء الأندلسيين عمومًا، وشعراء إشبيلية على وجه الخصوص[10]. وقد جاءت المقطوعات الشعريّة والنثريّة التي اشتمل عليها الكتاب لتصف مدحًا ـ وهو الغالب ـ أو قدحًا ـ وهو القليل ـ لمجموعة من الزهور والأنوار، منها: الورد، والبهار، والياسمين، والخيريّ، والجلنار، والبنفسج، وزهر اللوز، ...إلخ. وجُعل في فصولٍ ثلاثة: الأول: القطع في الربيع لم يسمَّ فيها نور ولا قصد بوصفها منه نوع، الفصل الثاني: القطع التي لم تنفرد بوصف نور، بل اشتملت على وصف نورين أو أنوار، والفصل الثالث: القطع المنفردة كلّ واحدة منها بنور على حدة.

وقد انطلق الشعراء الأندلسيون في مفاضلتهم بين النواوير من ملاحظتهم الدقيقة لتفاوتها في درجات الجمال، محدّدين المعايير والمجالات الرئيسة التي يتحقق فيها التفاضل بينها، يتضح ذلك فيما أورده صاحب البديع في فصل الربيع على لسان النواوير في رسالةٍ بعث بها الوزير أبو حفص أحمد بن محمّد بن بُرْد[11] إلى الوزير أبي الوليد بن جَهْوَر[12] يصف فيها نواوير خمسة، وغرضه تفضيل الورد بينها وتقديمه عليها: "يا معشر الشّجر وعامّة الزّهر، إنّ اللطيف الخبير الذي خلق المخلوقات، وذرأ البريّات باينَ بين أشكالها وصفاتها، وباعد بين مِنحِها وأُعطياتها، فجعل عبدًا ومَلِكًا، وخلق قبيحًا وحَسَنًا. فضّل على بعضٍ بعضًا حتّى اعتدل بعدله الكُلّ، واتّسق على لطيف قدرته الجميع. وأنّ لكُلّ واحدٍ منّا جمالًا في صورته، ورقّةً في محاسنه، واعتدالًا في قدّه،

(4) الاهتمام الجماليّ: انصراف الشخصيّة إلى الاهتمام بأنواع وموضوعات جماليّة معينة. ينظر: بلوز، علم الجمال، مطبوعات جامعة دمشق، 2000 . 2001 م، ص 61.

(5) المرجع نفسه، ص 62.

(6) شاكر: عبد الحميد، التفضيل الجماليّ، دراسة في سيكولوجيّة التذوق الفني، سلسلة عالم المعرفة، عدد 267، مارس، 2001م. ص 73.

(7) المرجع نفسه، ص 73.

(8) يختلف عنوان الكتاب باختلاف تحقيقه؛ فهو البديع في وصف الربيع بتحقيق كلّ من هنري بيريس وعبد الله عبد الرحيم عسيلان، والبديع في فصل الربيع بتحقيق د. علي كردي، وقد عاد الباحث إلى طبعاته المختلفة، ولكنه اعتمد البديع في فصل الربيع في توثيق الشواهد الشعريّة والنثريّة.

(9) إسماعيل بن محمد بن عامر الحميريّ، أديب وشاعر، له كتاب البديع في فصل الربيع، توفي سنة 440 هـ، ولم يتجاوز التاسعة والعشرين.

(10)الحميري: أبو الوليد، البديع في وصف الربيع، تحقيق: عبد الله عبد الرحيم عسيلان، دار المدني، جدة، ط1، 1987م، ص هـ.

(11) أحمد بن محمد بن أحمد بن برد، أديب كاتب، له "رسالة المفاخرة بين السيف والقلم" كان حيًا سنة 440 (هـ). بغية الملتمس146 ، جذوة المقتبس 107، الذخيرة 1/ 18/2، رايات المبرزين 120، المطرب 127، مطمح الأنفس 207، نفح الطيب 546/3، الوافي بالوفيات 7/ 350.

(12) محمد بن جهور بن عبيد الله بن محمد بن الغمر بن يحيى بن عبد الغافر بن يوسف بن بخت بن أبي عبدة، بويع لحكم قرطبة بعد وفاة أبيه أبي الحزم بن جهور سنة435 هـ، توفي سنة 462 بعد أربعين يومًا من سقوط قرطبة بيد المعتمد.

وعبقًا في نسيمه، ومائيةً في ديباجته قد عطفتْ علينا الأعين، وثنت إلينا الأنفس وأصبت بنا الأكف، وأزهت بمحضرنا المجالس حتّى سفرنا بين الأحبة، ووصلنا أسباب القلوب"[13]

ينم هذا النصّ على إدراك واضح لمكونات التجربة الجماليّة ومراحلها، وطبيعة القيمة الجماليّة الجدليّة بين الموضوع والذات؛ فالحكم الجماليّ الذي يتخذ صورة التفضيل ينطلق من التفاوت في درجات الجمال، وأما المعايشة الجماليّة، فتنطلق من الموضوع الجماليّ المحسوس في سماته المتفرّدة (جمال الصورة، ورقة المحاسن، واعتدال القدّ، وعبق النسيم، ورواء الديباجة)، التي تجذب الذات وتتملكها ابتداءً من جذب البصر، وليس انتهاء بتملك النفس (قد عطفتْ علينا الأعين، وثنت إلينا الأنفس)، وهو ما يجعلها تحوز قيمتها الجماليّة وتدفع الذات إلى ألوان من النشاط الجمالي؛ فتصبو إلى امتلاكها، وتزيين الأماكن بها، وجعلها وسيلة للتعبير عن المحبّة وطلب المودة (وأصبت بنا الأكف، وأزهت بمحضرنا المجالس، حتّى سفرنا بين الأحبة، ووصلنا أسباب القلوب). والوزير أبو حفص في نصه هذا يؤكد الطبيعة الثنائية الجدليّة في تكوين القيمة بين الجانب الموضوعيّ والجانب الذاتي؛ وإن كان ينطلق من أوليّة الجانب الموضوعيّ. ومن اللافت للنظر في مقاربته التفاوت بين الأزهار والنواوير في القيمة الجماليّة أنّه يقابل بين القبح والعبودية من جهة، والجمال والملك من جهة أخرى، وكأنه يُلمح إلى أن التفضيل الذي قام على تفوق النور عما سواه من النواوير الأخرى أوجب له الملك ، وأوجب على ما دونه من الأزهار الاعتراف بتفوّقه وتقديم الطاعة له، كما أوجب تفوّق الوزير أبي الوليد بن جَهْوَر تربعه على عرش السلطة، وأوجب له المبايعة وتقديم الطاعة من الناس جميعًا. فالفضل سبب التفضيل، والملك والحكم وولاية أمر الناس نتيجة موضوعيّة لهذا التفضيل.

وقد حدّد أبو حفص في رسالته مجالات التفاضل الجماليّ بخمسة: جمال الصورة، ورقة المحاسن، واعتدال القدّ، وعبق النسيم، ورواء الديباجة. ويتفق معه في ذلك معظم الشعراء في كتاب البديع في وصف الربيع،ولكنهم يتباينون فيما بينهم في طبيعة التفضيلات الجماليّة ودرجتها؛ فالتفضيل الجماليّ في الكتاب نوعان:

1. **التفضيل المطلق:**

ويكون بتفضيل نور على سائر النواوير والأزهار على وجه الإطلاق لا التقييد، والتعميم لا التخصيص. وقد ذكر أبو الوليد الحميريّ تفضيل الشعراء ضروبًا من النواوير منها:

- **الورد[14]:**

نال الورد حظوة عظيمة عند الأندلسيين، ولا سيما في مجال الرّد على ابن الرومي الذي فضّل البهار عليه، وكثيرًا ما استخدم الشّعراء ألفاظ المُلْك وما يتصل به من مظاهر للدلالة على تفضيله وتقديمه على النواوير الأخرى، كما في وصف أبي الوليد الحميري:

إنَّمـــا الـــوَرْدُ فـــي ذُرَى شَـــجَراتِهِ كَأَجَـــلِّ المُلُـــوكِ فـــي هَيْئاتِـــهْ

رائِـــقٌ مَنْظَـــرًا وخُبْـــرًا وَفَـــذٌّ فـــي حُـــلاهُ الَّتـــي حَلَـــتْ وَصِـــفَاتِهْ

نَفْحَـــةُ المِسْـــكِ مِـــنْ شَـــذا نَفَحاتِـــهِ خَجَـــلُ الخَـــدِّ مِـــنْ سَـــنَا خَجَلاتِـــهْ

مُزِجَـــتْ حُمْـــرَةُ اليَواقيـــت بالـــدُّرْ رِ فجـــاءَتْ بـــهِ علـــى حَسْـــبِ ذاتِـــهْ

مِثْلَمـــا جَـــاءَ مِـــنْ سَـــمَاحٍ وبَـــأسٍ خُلْـــقُ (الحِمْيَري)سُـــمِّ عُداتِـــهْ

إنْ يَعِـــدْ فالوَفَـــاءُ حَـــتْمٌ عَلَيْـــهِ فَرْضُـــهُ فـــي صِـــلاتِهِ كصَـــلاتِهْ[15]

(13) الحميري، البديع في فصل الربيع، تحقيق: د. علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين، دمشق، ط1، 1997م ص 59.

(14) الورد الجوري (Rosa damascena): من الفصيلة النباتية الوردية. ويعدّ من أقدم مجموعات نباتات الزينة، يزرع في الحدائق فيتخذ شكل شجيرات تميل إلى التسلق، أوراقها كثيرة العدد نضرة، تزهر بألوان متعددة، وأهم مواسم إزهارها هي الربيع والخريف. والوردة الجوريّة وردة عطرية من أهم ورود الشرق، تمتاز برائحتها النفاذة القوية، وتدخل في تركيب العطور الشهيرة والنفيسة والثمينة، تمتاز رائحتها بالنعومة والعذوبة التي تمثل الرمز لرائحة الورد الحقيقي والتأثير والجذب، والعطور التي تستخلص منها من أفضل الأنواع في العالم.

(15) الحميري، البديع في وصف الربيع، تحقيق د. علي كردي، ص 133 / 134 .الصّلات، واحدها الصّلة: العطيّة.

يستند الشاعر في تفضيله الورد إلى جملةٍ من الصفات المتفرّدة: المنظر أو الهيئة (كَأَجَلِّ المُلُوكِ في هَيْئاتِهْ، رائِقٌ مَنْظَرًا)، الرائحة العطرة:(رائق خُبْرًا، نَفْحَة المِسْكِ مِنْ شَذا نَفَحاتِهِ)، اللون: (خَجَلُ الخَدِّ مِنْ سَنَا خَجَلاتِهْ، مزجت حمرة اليواقيت بالدّر). ويعبّر عن قيمته مباشرةً بالدالين (أجلّ، رائق). في حين يعبّر عن تفوقه بالتراكيب: (أجلّ الملوك، فذّ في حلاه... وصفاته، نفحة المسك...، خجل الخدّ...). ومن اللافت في هذه الأبيات ذلك التّوظيف اللطيف لسمات الورد في المدح، وهو ما شكّل ظاهرةً فنيّة عند الشعراء الأندلسيين في النوريات خاصةً؛ إذ برعوا في إقامة علاقة بين حالة الزّهر وصفات الممدوح، وقلما يطالعنا مديحٌ لم يمهّد له بوصف نور، فاستغنوا بذلك عن المقدمات الطويلة[16]. من ذلك قطعةٌ لأبي بكر بن القوطية موصولةٌ بمدح ذي الوزارتين أبي أيوب بن عبّاد، يعلن فيها الوردَ سلطانًا مفضلًا إياه على النواوير كلّها، مظهرًا عناصر رقته وجماله:

نَـوْرُ الرُّبَـا خَـوَلٌ والـوَرْدُ سُـلْطَان ... بِـذا قَضَـى قَبْـلُ آذارُ ونَيْسَـانُ
سِـرٌّ طَوَتْـهُ فُصُـولُ العَـام حَاسِـدةً ... لِفَضْـلِهِ إذْ لَـهُ السُّـلْطَانُ والشَّـانُ
حتّـى إذا مـا الرَّبيـعُ الطَّلْـقُ نَـمَّ بـهِ ... بَـدا وقَـدْ ضـاقَ عَـنْ مَثْـواهُ كِتْمَـانُ
مُعالِجًـا فَـتْحَ أَوْراقٍ تُطَبِّقُـهُ ... كَمـا يُعـالِجُ فَـتْحُ العَـيْنِ وَسْـنَانُ
حَتّـى تَفَـتَّحَ مِـنْ أكْمَـامِ بُرْدَتِـهِ ... كمَـا تَفَـتَّحُ بَعْـدَ النَّـوْمِ أجْفَـانُ
أمّـا النَّسـيمُ فَطِيـبٌ لا أُكيِّفُـهُ ... واللَّـوْنُ حُسْـنًا بـهِ الألـوانُ تَـزْدانُ
فما سِوَى الوَرْدِ في النُّوَّارِ مِن مَلِكٍ ... ولا كَمِثْـلِ أبـي أيُّـوبَ سُـلْطَانُ[17]

وللفقيه أبي الحسن بن علي[18] قطعةٌ رائقةٌ متضمّنةٌ لصفاتٍ فائقة موصولة بمدح ابن عبّاد أيضًا:

للـوَرْدِ فَضْـلُ السَّـبْقِ عِنْـدَ المفْخَـرِ ... بـالمَنْظَرِ السَّـامِي وَطِيـبِ المخْبَـرِ
وَرَقٌ مِـنَ اليَـاقوتِ نُظِّـمَ فوقـه ... شِـذْرٌ مِـنَ الـذَّهَبِ السَّـبيكِ الأصْـفَرِ
ونَسـيمُ فَـوْحٍ لـيسَ يَبْلُـغُ طِيبَـهُ ... عَبَـقُ العَبيـرِ ولا دُخـانُ العَنْبَـرِ
نَقَـصَ الزَّمَـانُ ضَـنَائَةً مِـنْ عُمْـرِهِ ... وَكَـذا النَّفيسُ القَـدْرِ غَيْـرُ مُعَمَّـرِ[19]
والنَّـوْرُ غَيْـرُ الـوَرْدِ لَـيْسَ لشَخْصِـهِ ... دُونَ السَّـباطةِ ذابِـلًا مِـنْ مقْصَـرِ
والـوَرْدُ يَرْفَـعُ غَضُّـهُ ويَبِيسُـهُ ... رَفْـعَ الأكُـفِّ ظُـروفَ مِسْـكٍ أَذْفَـرِ
عَمَّـتْ مَنافِعُـهُ كمَـا عَـمَّ الـوَرَى ... جُـودُ ابـنِ عَبَّـادٍ فَريـدِ الأعْصُـرِ[20]

يرجع السبق الذي يحظى به الورد، في رأي أبي الحسن، إلى صفتين رئيستين: المنظر السامي وطيب المخبر. وكلمة السامي هنا تعبر عن قيمةٍ جماليّةٍ تعبيرًا مباشرًا . ولكن هذا الجمال سرعان ما يذوي آخذًا بالذبول والتلاشي، ذلك أنّ الورد، على جمال شكله ورقة نضارته، يتمايز بقصر عمره، الأمر الذي يعلّله الشاعر بقوله (وَكَذا النَّفيسُ القَدْرِ غَيْرُ مُعَمَّرِ)، وهو بهذا يبقي على الصّفة في إطار القيمة الجماليّة، ويضيف إليها صفةً أخرى تميّزه، ولكنّها تخرج به من نطاق القيمة الجماليّة لتدخله في نطاق القيمة

(16) ينظر: عيد: يوسف، دفاتر أندلسيّة . في الشعر والنثر والنقد والحضارة والأعلام، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، 2006م. ص 833.

(17) الحميري، المصدر نفسه، ص 130.

(18) علي بن عبد الله بن علي المعروف بالأستجيّ، من أهل الأدب والفضل، كان فقيهًا نحويًا من أهل قرطبة وسكن إشبيلية. بغية الملتمس 423، جذوة المقتبس 295، الذخيرة 200/1/2.

(19) الحميري، المصدر نفسه، 129 / 130.

(20) المصدر نفسه، 129 / 130.

النفعيّة في قوله: (والورد يرفع غضه ويبيسه) في إشارةٍ واضحةٍ إلى فوائده وقد يبس، ويردف مؤكدًا تلك الفوائد بقوله:(عَمَّتْ مَنافِعُهُ). وعلى الرغم من أنّ "المنفعة ليست قيمةً في الشيء المحكوم عليه، وإنّما هي أثر أو امتداد له"[21] فإنّها تؤثّر في التقييم الكلي؛ فالورد يحوز في ذروة نضارته قيمةً جماليّةً ترفعه عما سواه من النواوير، فإذا ما ذبل ويبس يظلّ محافظًا على مكانته تلك، ولكن بقيمته النفعيّة.

- **الياسمين[22]:**

نال الياسمين ما ناله الورد من حظوةٍ عند الأندلسيين، "وكان أكثر من افتتن بزهرة الياسمين الخلفاء والأمراء"[23] فكان أثر هذا الأمر اهتمامًا واحتفاءً بوصفه وتفضيله لدى الشعراء، فهو أمير النور في عرف أبي علي إدريس اليماني:

أميـــرُ النَّـــوْرِ يـــأْمُرُني بِشُـــرْبٍ وَلَسْـــتُ أُطيـــقُ عِصْـــيَانَ الأَميـــرِ
فَخُـــذْ كَـــأْسَ السُّـــرور فاســـقِنيها علـــى وُدِّ الأَميـــرِ علـــى السَّـــريرِ
نُجـــومٌ مـــن لُجَـــيْنٍ تَجْتَلِيهـــا سَـــماءُ زَبَرْجَـــدٍ خَضِـــلٍ نَضـــيرِ[24]

وهو ملكٌ استوى على كرسي ملكه، عند أبي عامر بن مسلمة:

وَذَكِـــــيّ العَـــــرْفِ لَاقَـــــا نَـــــا عَلـــــى كُرســـــيٍّ مُلْكِـــــهْ
أَرْضُـــــهُ الخَضْـــــرَاءُ بَحْـــــرٌ نَـــــوْرُهُ فِيـــــهِ كفُلْكِـــــهْ
يَاسِـــــمينٌ قَـــــدْ غَـــــدَتْ أَنْـــــ وارُنـــــا طَوْعًـــــا لِمِلكِـــــهْ[25]

يتجلّى تفرّد الياسمين، ضمن الأبيات السابقة، في رائحته العطرة، وخضرته الكثيفة النضرة التي تبدو مثل بحرٍ تتراءى فيه الأزهار كالفلك. هذا الجمال الممتزج بالجلال يجعله أهلًا لأن يكون ملكًا تدين له النواوير كلها بالسمع والطاعة. فالسلطة في عالم النواوير ليست للأقوى والأقدر، وإنما للأجمل والأبهى.

والياسمين ملك الجمال المتربّع على عرش الخضرة النضيرة، كما رسمه خيال أبي بكر بن القوطيّة:

وأبـــيضَ نَاصِـــعِ صَـــافي الأَديـــمِ تَطَلَّـــعَ فَـــوْقَ مُخْضَـــرٍّ بَهـــيمِ
نَزِيـــهُ الـــنَّفْسِ هِمَّتُـــهُ المَعَـــالي ذَكـــيُّ العَـــرْفِ مِسْـــكيُّ النَّسـيمِ
فَلَسْـــتَ تـــراهُ إلّا عِنْـــدَ مَلْـــكٍ وإلّا عِنْـــدَ خاصِـــيٍّ كَـــرِيمِ
شَـــأى النُّـــوَارَ فَـــارْتَفَعَ اعْتِراشًـــا عَلَيْـــهِ كَهَيْئَـــةِ المَلـــكِ العَظـــيمِ[26]

(21) إسماعيل، عز الدين، الأسس الجماليّة في النقد العربي،دار الفكر العربي، ط2، 1955م. ص 91.

(22) (فارسية معربة): نبات عطري متسلق، له أوراق مركبة ريشية متقابلة، وفي الفصيح يدعى (سمسق)، وهو اسم يطلق على نحو مئتي نوع من الشجيرات المزهرة التي تتبع الفصيلة الزيتونية. وتكون أزهاره بيضاء أو صفراء أو قرنفلية اللون، عطرية محمولة على نورات محدودة ذات شعبتين تأخذ في التدويح أكثر مما تأخذ في الارتفاع، وهو بستاني وبري، فالبستاني على ثلاثة أنواع: أبيض وأصفر وأسود. وأكثره الأبيض ذو أربع شرفات أو خمس، ويكون عطر الرائحة، وأعطر ما هو في زمن الصيف. وتعرف أزهار الياسمين بلقب "ملكة الزهور" وهي من أقدم الزهور المستعملة على نحو واسع في صناعة العطور.

(23) الشكعة، الأدب الأندلسيّ، دار العلم للملايين، بيروت، ط12، 2008م، ص 283.

(24) الحميري، المصدر نفسه، ص 99.

(25) المصدر نفسه، ص 97/ 98.

(26) المصدر نفسه، ص 99.

مما يلفت الانتباه في هذه الأبيات أنّ الشاعر ينطلق في تفضيله الياسمين من خاصيّة اعتراشه التي تميزه من غيره من النواوير فينعته بدايةً بـ(نَزيهُ النَّفْسِ هِمَّتهُ المَعَالي)، ثمّ يردّ علة اعتراشه إلى تفوقه وارتفاع قدره عما سواه، وهذا ما اقتضى علوه وارتفاعه في المكان، حتى غدا في هيئته كالملك العظيم الذي يتربع على عرشٍ لا ينازعه فيه أحد.

- **الآس[27]:**

أمّا الآس،"فقد فضّل قديمًا على ضروب الأنوار وصنوف الأزهار، وصيغت في ذلك حسان الأشعار، إذ إن شجره يقوم مقام النُّوار، ثمّ يزيده نوّاره جمالًا ثانيًا"[28].وعدّه الشّعراء سيّد الرياحين[29]؛ لدوام نضرته وخضرته زيادةً على عرفه حتى في زمن الجفاف، واتخذوه رمزًا[30]للوفاء، فهذا أبو جعفر بن الأبّار ينعته بالوفي بين النواوير الغادرة:

لَا أَيْـأَسَ الآسَ هَـامِي السَّـكْبِ مِـدْرارُ فَهْـوَ الـوَفيُّ وكُـلُّ النَّـوْرِ غَـدّارُ
تكـادُ تُثْمِـرُ نَفْـسُ الصَّـبِّ مـن جَـذَلٍ إذَا بَـــدا ثَمَـــرٌ مِنْـــهُ ونُـــوّارُ
كأنَّمــا أَلْبَسَــتْهُ المُــزنُ خُضْــرَ حُلَــى لَهــا مِــنْ الْمِسْــكِ والكَــافورِ أَزْرارُ[31]

ينحاز الشاعر بالقيمة الجماليّة إلى الذات فيصف أثر جمال الآس؛ إذ (تكاد تثمر نفس الصّبّ من جذل) وفي هذا إشارة لطيفة للذة الجماليّة التي تنتشي بها الذات في معايشتها الآس، ولعلّه أراد بهذه الاستعارة الإشارة إلى تفرّد الآس الذي يجمع إلى جمال الزهر جمال الثمر، فضلًا عن دوام خضرته ، وقد عبّر عنها بقيمة أخلاقيّة (الوفاء).

- **البهار[32]:**

وللبهارمن الجمال والصفات المتميزة ما يجعله أثيرًا عند كثيرٍ من العشاق والشعراء، فهذا أبو الحسن بن علي الأشجعيّ يفضله على ما سواه، نافيًا وجود نظيرٍ له بين النّواوير، فيقول:

مَــا لِلبَهــارِ نَظيــرٌ فــي النَّــواويرِ إذْ صَــارَ أَوَّلَ مَخْصُــوصٍ بتَبْكيــرِ
أمَـا تَـرَى الصَّـبَّ والمَعْشـوقَ قَـدْ جُمِعَـا فــي لَوْنِــهِ بَــيْنَ تَبيــيضٍ وتَصْــفِيرِ
كأنّمــــا رَقَّ للعُشَّــــاقِ مَنْظَــــرُهُ فَعَجَّــلَ النَّــوْرُ مِــنْ بَــيْنِ النَّــواويرِ
أَحْبِــبْ بــهِ فَلَقَــدْ أنْبَــا بطَلْعَتِــهِ عَــنِ السُّــرورِ وَإِتْمــامِ التّباشِــيرِ[33]

تتماهى الرّقة مع الجمال في وصف البهار؛ إذ يتفرّد بألوانه التي تحاكي الصبّ (الأصفر) والمعشوق (الأبيض)، وكأنّ هذه المحاكاة تمثيلٌ حسّي لتعاطف البهار المعنوي مع العشّاق، لذلك فهو يسارع للتفتح بداية الربيع ليكون بشيرًا لهم بين يدي قدوم زمن المسرة والوصال.

(27) الآس (باللاتينية: Myrtus) جنس نباتي من الفصيلة الآسيّة، بيضيّ الورق، أبيض الزّهر، ثماره صغيرة ذات لون أبيض أو أسود تسمّى حبّ الآس. وهو من الرياحين التي أحبّها العرب وذلك لبقائه ودوام نضرته وخضرته زيادة على عَرْفه حتى زمن الجفاف، فعدّ سيّد الرياحين.

(28) الحميريّ، المصدر نفسه، ص 92.

(29) ينظر: اليافي، دراسات فنيّة في الأدب العربي، ص 291.

(30) ينظر: عيد، أوراق أندلسيّة، ص 305.

(31) الحميري، البديع في وصف الربيع، ص 95.

(32) جنسٌ نباتيٌّ يتبع الفصيلة النرجسيّة، ينمو من بصلةٍ شتويّةٍ مبكرةٍ معمرةٍ، له أصناف وأنواع كثيرة أشهرها اثنان: أصفر وأبيض. للأصفر ورقة كورق الزعفران، تلتوي أطراف الأوراق وترجع إلى جانب الأرض وساقها تعلو نحو شبر أو شبرين، ملساء خضراء وقد ذكره الشعراء كثيرًا ومدحوه وشبهوا العيون الفواتر به لانكساره وميله، والأبيض ورقه كأطراف الحلقة يمتد على الأرض وله ساق خضراء في أعلاها زهر أبيض وفي وسطه أصفر وله رائحة قوية ويعرف بالبهار. يظهر في الشتاء وبعد نزول المطر.

(33) الحميري، البديع في فصل الربيع، ص 103.

- **البنفسج[34]:**

وللبنفسج حضوره الآسر النبيل، ولونه المتفرّد الذي أشكل وصفه على الشّعراء؛ فحثّ قرائحهم للبحث عن قرينه، وعطره الذي لا يماثله في طيبه أي عطر، لذلك استحق التفضيل على مذهب أبي الأصبغ بن عبد العزيز:

وَبَنَفْسَـــجٍ أَرْبَـــى عَلَـــى النُّـــوّارِ ... وَأفادَنَـــا عِطْـــرًا بِـــلَا عَطَّـــارِ
فَكَـــأنَّ أعْـــلاهُ فـــي فَيْـــروزَجٍ ... وبِسَـــاطُهُ فـــي خُضْـــرَةِ الأشْـــجَارِ
وَافَـــاكَ فـــي وَقْـــتِ الزِّيـــارَةِ قائِمًـــا ... وَقَـــد انْحَنَـــى للـــوَحْيِ بالأَسْـــرَارِ
هُـــوَ مِسْـــكَةٌ خُلِقَـــتْ لَهَـــا أوْراقُهَـــا ... فـــي لَوْنِهـــا مِـــنْ صَـــنْعةِ الجَبَّـــارِ
أو رُقْعَـــةٌ زَرْقـــاءُ مِـــنْ كَبِـــدِ السَّـــمَا ... فـــي يَـــوْمِ صَـــحْوٍ فِتْنَـــةُ النُّظَـــارِ
أو لمَّـــةُ الحَسْـــنَاءِ تَحْسِـــبُ وَسْـــطَها ... للزَّعْفَـــرانِ مَواضِـــعَ الآثَـــارِ
أو لُجَّـــةٌ كَحْـــلَاءُ هَزَّتْهـــا الصَّـــبَا ... فَتكسَّـــرَتْ لينًـــا علـــى مِقْـــدَارِ[35]

تماهي زهرة البنفسج الصغيرة بين قيمتي الرّقة والجمال؛ فالصور التمثيليّة (الشكلية، اللونيّة) التي رسمها الشاعر لها (انْحَنى للوَحْي بالأَسْرَارِ، مِسْكَةٌ، رُقْعَةٌ زَرْقاءُ ...فِتْنَةُ النُّظَارِ، لمَّةُ الحَسْنَاءِ... للزَّعْفَرانِ مَواضِعَ الآثَارِ، لُجَّةٌ كَحْلَاءُ هَزَّتْها الصَّبَا فتكسرت لينا) توحي كلّها بالأنوثة والتزين واللين والتعطف، وكلها ملامح تشي بالرقة واللطف.

- **النيلوفر[36]:**

ولزهرة النيلوفرالجميلة المترفعة مكانةٌ عند الأندلسيين، وقد افتتن بها الشّعراء وأولعوا بوصفها، فهي تتميز بخاصيةٍ فريدةٍ، تضاف إلى تفوقها بالمنظر الجميل والرائحة العطرة؛ إذ إنّها تتفتح نهارًا، فإذا ما أقبل الليل غلّقت بتلاتها وكتّمت عطرها، وهذا الأمر يبتدع فيه أبو الأصبغ بن عبد العزيز تعليلًا طريفًا:

ونَيْلُـــوفَرٍ فَـــاقَ فـــي فَضْـــلِهِ ... صُـــنوفَ النَّـــواويرِ مِـــنْ شَـــكْلِهِ
وفَـــاتَهُمُ بالَّـــذي حَـــازَهُ ... كَمـــا قَصَّـــرَ الكُـــلُّ عَـــنْ نَيْلِـــهِ
يُبـــيحُ نَهـــارًا لـــزُوَّارِهِ ... مُحَيَّـــا يُرَغِّـــبُ فـــي وَصْـــلِهِ
ويَمْنَـــعُ باللَّيْـــلِ مِـــنْ وَجْهِـــهِ ... لِيَأْخُـــذَ بـــالحَزْمِ فـــي فِعْلِـــهِ
كَبَـــائِعِ عِطْـــرٍ بحَانوتِـــهِ ... ضِـــيَاءَ النَّهـــارِ إلـــى ليلِـــهِ
فـــإنْ جـــاءَهُ اللَّيْـــلُ أفْضَـــى بـــهِ ... إلـــى سَـــدِّه وإلـــى قَفْلِـــهِ[37]

(34) البنفسج (بالإنجليزية: Wild Viola): جنس نباتي ينتج أزهارًا بنفسجية أو بيضاء اللون. ويوجد منها من أربعمئة إلى خمسمئة نوع مختلف حول العالم، وهو نبات عشبي معمّر لا يعرف موطنه الحقيقي، ولكنه نشأ في أوروبا وآسيا وأفريقيا، وأوراقه قلبية الشكل وأزهاره بنفسجية اللون ذات رائحة عطرية، وينتج النبات الجيد سنويًا بمعدل 125 زهرة في المتوسط في موسم طويل يبدأ من أواخر الشتاء وينتهي في أواخر الربيع.

(35) الحميري، المصدر نفسه، ص 110.

(36) النيلوفر أو (اللوتس (Lotus)): هو نباتٌ مائيٌّ مزهرٌ تتميز أزهاره ببتلاتها الدائرية الكاملة وقرنتها ذات الشكل الإسطوانيّ، التي تبرز في العادة إلى الأعلى. يحمل نبات النيلوفر أزهارًا كبيرةً ومجوفةً وبألوانٍ متنوعةٍ تتراوح بين الأبيض النقي والأحمر الوردي. تنمو الأزهار العطرية فوق ساقٍ طويلةٍ ونحيلةٍ، تظهر فوق أوراق ناعمة تشبه مظلةً مقلوبةً، هذه الأقراص المسطحة ذات اللون الأخضر المزرق يمكن أن يصل قطرها إلى قدمين. تزهر أزهار النيلوفر كلها في النهر؛ إذ تتفتح أزهارها عند الفجر وتقفل عند الغسق طوال خمسة أيام، عندما يولي اليوم الخامس تسقط بتلات الزهرة ليظهر مكانها قرنة خضراء لبية تنحني نحو الماء وتلقي بذورها، لتبدأ دورة حياة جديدة.

(37) المصدر السابق، 147.

يؤكّد الشاعر تفوّق النيلوفر بتراكيب ثلاثة: (فاق في فضله صنوف النواوير...)، (فاتهم بالذي حازه)، (قصّر الكلّ عن نيله)، وعلى الرغم من أنّ هذه الصفة التي تفوّق بها ليست جماليّة، فإنّ الشاعر يوحي بأنها توجب تفضيله ، ورفع شأنه عمن سواه.

- **زهر اللوز**[38]:

ولزهر اللوز من الحسن والجمال ما يبوّئه مكانةً رفيعةً بين النواوير، تتوازى وارتفاعه فوق أغصان الشجر، يقول أبو عامر بن مسلمة في تفضيله:

يـــازَهَرَ اللَّـــوْزِ لَقَـــدْ فُقْـــتَ فـــي الْـــ	إحْسَـــانِ والحُسْـــنِ فأنْـــتَ البَـــديعْ
قَـــدْ حُـــزْتَ حُسْـــنَيْنِ وحـــازَتْ نَـــوا	وِيـــرُ الرُّبَـــا حُسْـــنًا فأنْـــتَ الرَّفيـــعْ
تَعْلـــو بَهَـــارَ الـــرَّوْضِ حُسْـــنًا فَقَـــدْ	أصْـــبَحْتُ مخصُوصًـــا بِحُـــبِّ الرَّبيـــعْ
قَـــدْ أَمَّـــكَ الوُصَّـــافَ إذْ شَـــبَّهوا	غَيْـــرَكَ بالخَـــدِّ وجَـــارَ الجَميـــعْ
فَلَوْنُـــكَ المُشْـــرَبُ فـــي حُمْـــرَةٍ	مَـــنْ يَـــرَهُ أَصْـــبَحَ لا يَسْـــتَطيعْ
دَفْعًـــا لَمَـــا قُلْـــتُ إذا عـــايَنُوا	جَمَالَـــكَ النُّـــورِيْنِ عِنْـــدَ الطُّلُـــوعْ
فُقْـــتَ النّـــواويرَ اعْـــتلاءً فَمَـــا	فـــي زَهْرِهـــا غَيْـــرُ سَـــميعٍ مُطِيـــعْ[39]

يحدّد الشاعر مجال التفوّق ومن ثم التفضيل بالإحسان والحسن؛ فأمّا الحسن، فهو الجمال المتأتي من بياض ناصع مشرّبٍ بالحمرة، وأمّا الإحسان، فيتأتى من ارتفاعه فوق الأغصان، وقد أبدع الشاعر في تحويل الجناس الناقص بين الإحسان والحسن إلى علاقة وثيقة بين المعيار الجماليّ والمعيار غير الجماليّ، وهو ما يولّد في نفس المتلقي شعورًا بأحقيّة هذا النور بالتفضيل.

- **الخيريّ الأصفر**[40]:

ويتفوّق الخيريّ الأصفر ذو اللون المتألق على بقية أنواع الخيري، بأنّه يطلق عبيره في كلّ وقتٍ، فلا يمنعه كغيره ليلًا أو نهارًا، لذلك يفضّله أبو عامر بن مسلمة ويعلي قدره فيقول:

أَصْـــــفَرُ الخِيـــــريِّ عِنْـــــدي	أَرْفَـــــعُ الخِيـــــريِّ قَـــــدْرَا
فَهْـــــوَ لا يَمْنَـــــعُ عَرْفًـــــا	وَهْـــــوَ لا يَحْميـــــكَ عطْـــــرَا
مِثْـــــل لَـــــوْنِ الـــــذَّهَبِ الخـــــا	لِـــــصِ لَكِـــــنْ فـــــاقَ نَشْـــــرَا
وغَـــــدا يَحْكـــــي اليَواقيـــــ	ـــتَ إذَا مـــــاكُنَّ صُـــــفْرا
مِثْلُـــــهُ اسْـــــتَوْجَبَ مِنّـــــي	أَبَـــــدًا شُـــــكْرًا وَسُـــــكْرا[41]

يضفي الشاعر على التفضيل في هذه الأبيات صبغة ذاتية فرديّة يعلنها في مطلعها (أصفر الخيريّ عندي)، ثم يؤكدها في ختامها (مثله استوجب منّي...).وتتجلّى القيمة الجماليّة للأصفر الخيري برائحته العطرة المتاحة دائمًا، ولونه الذي يحكي لون الذهب الخالص تارةً واليواقيت الصفر تارةً أخرى.

(38)اللوز: هو أحد أنواع جنس البرقوق يتبع الفصيلة الوردية، شجرته متناسقة الشكل يصل ارتفاعها إلى 12م، ولها أوراق طويلة ملتفة ومدببة الرأس، تتميز بأزهارها الجميلة ذات اللون القرنفلي الرائع، وتظهر هذه الأزهار وتتفتح في أوائل الربيع وقبل ظهور الأوراق بوقت طويل، وحينما يتم لقاح هذه الأزهار، فإن كل واحدة منها تتحول إلى ثمرة تنمو داخل قشرة ناعمة ورقيقة، وعندما تنضج الثمرة الداخلية التي هي حبة اللوز، فإن القشرة تتحول إلى غلاف جاف خشبي الشكل.

(39) الحميري، المصدر نفسه، ص 152.

(40) الريحان (بالإنكليزية: Basil): وقد أطلقت اللغة العربيّة لفظ الرياحين على كلّ نبت طيّب الريح كالنرجس والمنثور وغيرهما. ولكنّ اللفظ أصبح يطلق بوجهٍ خاصٍّ عند الناس على ما يدعى " الحبق" بالعربيّة، وهو نباتٌ عطريٌ من الفصيلة الشفويّة. وله أنواعٌ متعددة ولكن كتب اللغة والأدب العربيّة ليست متّفقةً تمام الاتفاق في وصف كلٍّ من هذه الأنواع وتسميته. ومن أشهر أنواعه الخيريّ النمام والخيريّ الأصفر.

(41) الحميريّ: المصدر نفسه، ص 89.

- **الجلنار:**

ويتفرّد الجلنار بلونه الناري المتوقّد، فهو أحلى حُلًى من سائر النواوير في رأي أبي الوليد الحميري:

وجُلَّنَـــــــــــارٍ تَبَـــــــــــدَّى يَخْتَـــــالُ فـــــي جُـــــلِّ نَـــــارِ
أحْلـــــى حُلًـــــى مِـــــنْ جَميـــــعِ الْـــــ ـأَنْـــــــــــوَارِ والأزهـــــــــــارِ
حَكـــــــى خُـــــــدُودَ العَـــــــذَارَى قَـــــــدْ شُـــــــرِّبَتْ بـــــــاحْمِرَارِ
وخُمِّشَـــــــــــتْ بِـــــــــــأَكُفِّ الْ ـأَلْحَـــــــــــاظِ والأبْصَـــــــــــارِ[42]

يعبّر الشاعر عن القيمة والتفضيل بلفظ واحد (أحلى)، ثم يختار مقابلًا لونيًا يمتاز برقته (خدود)، ويقصره على العذارى اللواتي يعرفن بشدّة خجلهنّ، وليس أدل على الخجل من حمرة الخدّ، الذي يجذب الألحاظ لحسنه، فتزيده الألحاظ حمرة على حمرته، فتبدو العيون المتعلقة به كأنّها أكفّ تخمّشه، وكأنما أراد الشاعر بهذا أن يجمع للزهرة ما يحاكيها في اللون والقيمة الجماليّة (الرّقة)، فيوجب لها التفضيل.

وهكذا نجد أنّ الشاعر الأندلسيّ في كتاب البديع في فصل الربيع يصبّ جلّ اهتمامه في التفضيل المطلق على الموضوع المفضّل في عناصره المتفوقة وصفاته المميزة، دون الالتفات إلى غيره من الموضوعات إلا بوصفها قاصرةً عن مداناته في الكمال، تاركًا آليات الموازنة والمقارنة لنوعٍ آخر من التفضيل.

2. التفضيل المقارن:

ويكون بتفضيل نورٍ على آخر في إطار مقطّعاتٍ، تقوم على المقارنة وإظهار ما وقع بينهما "من تفضيلٍ وتغليب، أو جرى بينهما من تفاضل وتفاخر، فإنّ تلك القطع تشتمل على مدح نورٍ، وذمّ آخر، فهما موصوفان، ولم تتفرّد القطعة بنور، وإنما اشتملت على نورين، وتضمنت وصف شيئين، وأكثر ما وقع هذا قديمًا في الورد والبهار"[43]. ويرجع ذلك إلى عوامل عدة؛ منها ما يتصل بصفاتهما الخاصة كاللون والشكل والرائحة وزمن التفتح وغيرها، ومنها ما يتصل بالاهتمام الجماليّ، والتحفيز الإبداعي الذي نشأ في ظلّ المنافسة الأدبيّة بين المغرب والمشرق، تلك التي تجلّت في ردّ كثيرٍ من الشعراء على ابن الرومي في تفضليه البهار على الورد. ولصاحب الشرطة أبي بكر بن القوطيّة قصيدٌ يردّ فيه على ابن الرومي؛ يصفه أبو الوليد في كتابه البديع بأنّه "قولٌ مستولٍ على غاية الكمال، مستوفٍ نهاية الجمال موصولٌ بمدح ذي الوزارتين القاضي الأجل، الرفيع المحل. وهو من أوله إلى آخره"[44]:

كُسِـفَتْ خُـدودُ النَّـرجْسِ المُصَـفَرِّمِن حَسَـدٍ، وَقَـدْ يَـذْوِي العَـدُوُّ الحاسِـدُ
واصْـفَرَّ حتّـى كـادَ أنْ يَقْضِـي أسًـى لمّـا رأى الـوَرْدَ الـذي هـوَ واردُ
هيهـاتَ للـوَرْدِ الفَضَـائِلُ كُلُّهـا وإنْ ادَّعَـى التَّكـذيبَ فيـهِ مُعَانِـدُ
فصْـلُ القَضَّـيةِ أنَّ هَـذا مُمْتِـعٌ فَصْـلَ الرَّبيـعِ، وَكُـلُّ نَـوْرٍ بائِـدُ
يـأْتي ونُـوَّارُ الثَّـرَى مُتَزَحْـزِحٌ وَكَـذا الـرئيسُ مِـنَ المَشـابِهِ واحِـدُ
هَـذا مُقِـرٌّ للسَّـماءِ بِفَضْـلِهَا فيمَـا غَذَتْـهُ بـهِ وهَـذا جاحِـدُ
وتَـرى تَبـاينَ ذاكَ فـي وَجْهَيْهِمَـا بـاللّونِ والنَّشْـرِ الّـذي هُـوَ شَـاهِدُ
كَـمْ بـينَ مُصْـطَنِعَيْنِ : هَـذا كـافِرٌ إفْضَـالَ سَـيِّدِهِ، وهـذا حامِـدُ

(42) المصدر نفسه، ص 164.

(43) الحميريّ، المصدر نفسه، ص 75.

(44) المصدر نفسه، ص 78.

هــذا لَــهُ خَلْــقُ العَجــوزِ وهَــذِهِ عَـذْراءُ فـي حُمْـرِ المَجاسِـدِ ناهِـدُ[45]
وكَفَــى افتخــارًا أنَّ هَــذا نــافِقٌ غَضًّــا ومُبْتَــذِلًا، وَهَــذا كاسِــدُ
لَــوْ لَــمْ يَكُــنْ للــوَرْدِ إلّا أنَّــهُ يَفْنَــى وَيَبْقَــى مــاؤهُ المُتَعَاهِــدُ
ولَــهُ مَنــافِعُ لا تَجَمَّــلُ كَثْــرَةً وَمَرَافِــقٌ مَشــكورَةٌ وفوائِــد
والنَّــرْجِسُ المُصْــفَرُّ لَــيْسَ بنــافِعٍ مَيْتًــا وَلا فِــي الــرَّوْضِ إذْ هُــوَ وافِـدُ
هَــذا عَقــيمٌ لَا يُشَــادُ بــذِكْرِهِ أبَــدًا وعَقْــبُ الــوَرْدِ بَــاقٍ خالِــدُ
أَخَــوانِ مَقْرونــانِ لَــمْ يَتَنازَعــا شِــبْهًا، وبينَهُمــا إخَــاءٌ تالِــدُ
هــذا يُبَشِّــرُ بالحَيَــاةِ وذَاكَ يُــنْ ذِرُ بالمَمَــاتِ إذْ أَتَــاهُ العَائِــدُ
"أيــنَ الحَيــاة مِــنَ المَمَــاتِ نَفَاسَــةً وريَاسَــةً لــولا القيــاسُ الفَاسِــدُ"[46]

ويبين الجدول الآتي مجالات التفاضل بينها:

	الورد	البهار
زمن التفتح	التأخر (يأْتي ونُوَّارُ الثَّرى مُتَزَحْزِحٌ)	التبكير
اللون	مُقِرٌّ للسَّماءِ بِفَضْلِهَا	جاحِدُ
النشر	مُقِرٌّ للسَّماءِ بِفَضْلِهَا	جاحِدُ
الرواء والنضارة	عَذْراءُ في حُمْرِ المَجاسِدِ ناهِدُ	خَلْقُ العَجوزِ
المنافع	نافقٌ غضًّا ومبتذلًا	كاسد
	ولَهُ مَنافِعُ لا تَجَمَّلُ كَثْرَةً	ليس بنافعٍ ميتًا ولافي الروض إذ هو وافد
	وعَقْبُ الوَرْدِ بَاقٍ خالِدُ	عَقيمٌ لَا يُشَادُ بذِكْرِهِ
القيمة الكليّة	يُبَشِّرُ بالحَيَاةِ	ينذر بالممات

يقول أبو الوليد الحميريّ: (وقوله "أين الحياة من الممات..." البيت هو لابن الرومي وأتقن الرّدّ عليه فيه، وبيت ابن الرومي:

أَيْــنَ العُيــونُ مِــنَ الخُــدُودِ نفاسَــةً وريـاسَــةً لَــوْلا القِيــاسُ الفاسِــدُ[47]

ويبدو أنّ ابن القوطيّة انطلق في بناء القطعة الشعريّة من حيث انتهى ابن الرومي من نقطة المقابلة، ولكنّه لم يتركها معقودةً بين العيون والخدود، وإنما نقلها لتصبح بين الحياة والممات. وفي حين تنشأ ثنائية ابن الرومي من المقابلة بين الزهرتين في مجالين مختلفين؛ فالنرجس يحاكي العين في شكله، في حين يحاكي الورد الخدّ في لونه، تنشأ ثنائيّة ابن القوطيّة في مجال واحدٍ هو اللون بكلّ ما يحمله من إيحاءاتٍ راسخةٍ في الوعي الجمعيّ للبشريّة؛ فالأحمر لون الحياة والنشاط، والأصفر لون السقم والكمد. وتحت العنوان الرئيس (الحياة . الممات) تنضوي مجموعةٌ من الثنائيات الضدّيّة التي تضفي على المقارنة مزيدًا من القوة والحيويّة. إنّ تفضيل الشاعر للورد ينبع من قيمته الجماليّة التي يجدها الشاعر أعلى وأولى بالاهتمام من قيمة النرجس الجماليّة. ولعلّ قوة انفعال الشاعر بجمال الورد هو ما أمدّ النص بهذا الدفق الشعريّ.

ومن اللباب في هذا الباب رسالةٌ كتب بها الوزير أبو حفص أحمد بن محمد بن بُرْد إلى الوزير أبي الوليد بن جهور وصف فيها نواوير خمسة هي: النرجس الأصفر، والبنفسج، والبهار، والخيريّ النّمام، والورد، وغرضه تفضيل الورد بينها وتقديمه عليها. وفي

(45) المجاسد: جمع المِجْسَد: الثوب الملامس للجسد.

(46) الحميريّ، المصدر نفسه، ص 79.

(47) ينظر: المصدر نفسه، ص 79، ابن الرومي، الديوان، تحقيق: حسين نصّار،ج 2/ ص 644.

معرض رسالته يعلل تفضيله الورد على لسان قائم النواوير فيقول: "فينا من له المزية علينا، ومن هو أولى بالرياسة منا، ومن يجب علينا التحرّج ومدّ اليد بالمبايعة، وإعطاء مجهود المحبة، وبذل ذات النفس، وهو الورد. فهو الأكرم حسبًا، والأشرف زمنًا، والأتمّ خصالًا، والذي إن فقدت عينه لم يفقد أثره، وغاب شخصه لم يغبْ عرفه، والطيب إليه كله محتاج، وهو عن كيفه مستغنٍ، وهو أحمر والحمرة لون الدّم، والدّم صديق الرّوح، وصيغة الحياة، وهو كالياقوت المنضّد في أطباق الزّبرجد عليها فرائد العسجد. وأمّا الأشعار فبمحاسنه حسنت، وباعتدال جماله وزنت"[48] وقد ضمّن أبو حفص الرسالة شعرًا على لسان النواوير الخمسة تبايع كلٌ منها الورد وتشهد بملكه ومنها:

شهادة النرجس:

شَـــــهِدَ النّـــــرجس والله يـــــرَى صِـــحَّة النِّيّـــاتِ مِنْهـــا والمَـــرضْ

أنَّ للـــــوَرْدِ عَلَيـــــهِ بَيْعَـــــةً أُكِّـــدَتْ عَقْـــدًا فَمَـــا إنْ تَنْـــتَقِضْ[49]

شهادة البنفسج:

شَـــــهِدَ البَنفْسِـــــجُ أَنَّـــــهُ للـــــورد عَبْـــــدُ تَمَلُّـــــك

يَسْـــــعَى بِقَلْـــــبٍ نَاصـــــحٍ فـــــي حُبِّـــــهِ مُسْـــــتَهْلِكِ[50]

شهادة البهار:

شَـــهِدَ البَهَـــارُ وذو الجَلاَلَـــةِ عـــالِمٌ بِصَـــحِيحِ مَـــا يُبْـــدِي ومَـــا يُخْفِيـــهِ

أنّ الإمـــارةَ فـــي الأَزَاهِـــرِ كُلِّهَـــا لِلْـــوَرْدِ لا يُـــؤتَى لَـــهُ بشَـــبيهِ[51]

شهادة الخِيريُّ النّمام:

شَـــهِدَ الخِيـــريُّ بَـــرًّا صَـــادِقًا قَوْلَـــةً أَبْعَـــدَ عَنْهَـــا الـــدَّرَكْ

أنَّ أَزْهـــارَ الثَّـــرى أجْمَعَهـــا أَعْبُـــدٌ والـــوَرْدُ فيهـــا مَلِـــكْ[52]

ثمّ إنّ أبا الوليد الحميري أردف رسالة أبي الحسن برسالةٍ مشتملةٍ على وصف سبعة أنوار وغرضه الرّدّ بتفضيل البهار على الورد خاطب بها ذا الوزارتين القاضي ابن عباد، يقول في معرضها: "فبأيّ شيء أوجبت تقديمه [. الأزهار والنواوير.]، ورأت تأهيله لما غيره أشكل له، وأحقّ به، وهو نور البهار البادي فضله بدوّ النهار، والذي لم يزل عند علماء الشّعراء، وحكماء البلغاء، مشبّهًا بالعيون التي لا يحول نظرها، ولا يحور حورها، وأفضل تشبيهٍ للورد الخدّ عند من تشيّع فيه، وعني به، وأشرف الحواس العين، إذ هي على كلّ مُنوَّلٍ عون، وليس الخدّ حاسةً، فكيف تَبْلغه رياسة؟"[53] ثم يورد بيت ابن الرومي الآنف، وكما ضمّن أبو حفص رسالته شعرًا على لسان النواوير المعترفة بفضل الورد ضمّن أبو الوليد رسالته نثرًا وشعرًا على لسانها ذاتها تعود فيه عن خطئها في تقديم الورد معترفةً للبهار بأحقيته في ذلك، ومن ذلك الشعر:

(48) الحميري، البديع في فصل الربيع، ص 59/ 60.

(49) المصدر نفسه، ص 63.

(50) المصدر نفسه، ص 63.

(51) المصدر نفسه، ص 63.

(52) المصدر نفسه، ص 63.

(53) الحميريّ، البديع في فصل الربيع، ص 65.

شهادة البنفسج:

أمَّـــا البَنَفْسَـــجُ فَهْـــوَ يَشْـــهَدُ أنَّـــهُ مُتَـــذَمِّمٌ مِمَّـــا جَنَـــى مُتَنَصِّـــلُ[54]

مُتَبَـــرِئٌ مـــن بَيعـــةِ الـــوَرْدِ الّتـــي لـــم يَبْـــرَ مِنْهـــا دَاؤُهُ المُتَأَصِّـــلُ

مُتَبَـــيِّنٌ فَضْـــلَ البَهـــارُ وَ عـــالِمٌ أنَّ البَهَـــارَ هـــو المليـــكُ الأَفضَـــلُ[55]

شهادة النرجس:

أشْـــهَدَ النَّـــرْجِسْ إِشْـــهادَ مُحِـــقّ أنَّ بَـــدْرَ الـــوَرْدِ فـــي المُلْـــكِ مُحِـــقْ

وَرَأى أَنَّ البَهَـــــــارَ المُجْتَلَـــــــى فـــي سَـــمَاءِ الحُسْـــنِ بالمُلْـــكِ أَحَـــقْ

فَمَتـــــى كُـــــذِّبَ قَـــــوْلٌ أَبَـــــدًا قِيـــلَ فـــي قَوْلَتِـــهِ هَـــذِي صَـــدَق[56]

شهادة الخِيريّ:

أشْـــهَدَ الخِيـــريُّ أن الخَيْـــر فـــي نَقْـــضِ مَـــا أَخْطَـــأ فيـــهِ أوّلا

مُوْقِنًـــا أنَّ البَهَـــارَ المُرتَضَـــى بَهَـــرَ الأَمْـــلاكَ حَـــالا وَحُلـــى

فهـــو المـــوقِظُ أَنْـــوارَ الرُّبَـــا مِـــنْ سِـــنَاتٍ سَـــنَّها فيهـــا البِلـــى[57]

شهادة الأقحوان:

أَشْـــهَدَ الأُقحـــوانُ أنَّ جنَـــاهُ كـــافِرٌ بالّـــذي سِـــواهُ جَنَـــاهُ

قَائـــلٌ قـــولَ مَـــنْ تَبَـــرَّأَ قِـــدْمًا مِـــنَ هَـــوَى مَـــن قَضَـــى عَلَيْـــهِ هَـــواهُ

إنَّ نَـــوْرَ الرُّبَـــا عبيـــدٌ وكُـــلٌّ للبَهـــارِ البهـــيّ يقضـــي وَلاهُ[58]

شهادة الخِيريّ الأصفر:

أَصْـــفَرُ الخِيـــريِّ يَشـــهَدْ أَنَّ عَقْـــدَ الـــوَرْدِ قَـــدْ رُدْ

وَيَـــرى أَنَّ البَهَـــارَ الْـــ مُنْتَقـــى أَعْلـــى وَأَمْجَـــدْ

مَلِـــكٌ يَقْظـــانُ يَـــأْتي وَصُـــنُوفُ النَّـــوْرِ هُجَّـــدْ[59]

ولعلّ أبرز ما يلحظ في جملة الشهادات السابقة أنّ الشاعر يسلط الضوء في مبايعة النواوير الخمسة على مواطن التفرّد في البهار مستفيدًا من فنون البيان والبديع في تأكيد صحة ما ذهب إليه في تفضيله.

(54) متذمّم: ملوم.

(55) الحميري، البديع في فصل الربيع، ص 70.

(56) المصدر نفسه، ص 71.

(57) المصدر نفسه، ص 71.سِنات، واحدها سِنَةٌ: النُعاس، وأول النّوم.

(58) المصدر نفسه، ص 72.

(59) المصدر نفسه، ص 72.هُجَّد: نيام.

وتكمن أهمية الرسالتين في شكلهما؛ ذلك أنهما تجمعان خصائص التفضيل المطلق إلى خصائص التفضيل المقارن؛ إذ تعرض كلّ واحدةٍ منهما تفضيل نورٍ على نورٍ في سياقٍ قصصي يقوم على حوار يدور بين مجموعةٍ من أجمل النواوير وأشهرها، وهي التي ينعتها أبو حفص بـ "رؤساء الأنوار".

ومن المفاضلات الشائعة أيضًا المفاضلة بين البنفسج والخيريّ، ومثال ذلك قطعتان وقعتا بين الوزير أبي الأصبغ بن عبد العزيز وصاحب الشرطة أبي بكر القوطيّة؛ يفضّل أبو الأصبغ الخِيريّ في الأولى، ويردّ عليه أبو بكر بتفضيل البنفسج في الثانية، وقطعة أبي الأصبغ موصولة بمدح ذي الوزارتين القاضي ابن عبّاد:

مـــا للبَنَفسَـــجِ يَـــدَّعي التَّفْضـــيلَا مُتحـــــاملًا ويَعُـــــدُّ ذَاكَ جَمـــــيلا

هَيْهَـاتَ قَـدْ بَـرَحَ الخَفـاءُ فَعُـدْ إلـى حُكْـــمِ التّناصـــف واتْـــرُكِ التَّخيـــيلا

الفَضْـــــلُ للخِيـــــريِّ إلَّا أَنَّهـــــمْ جَهِلـــوا ولمّـــا يُحْسِـــنوا التَّـــأوِيلا

قَهَـــرَ البَنَفْسَـــجَ مَنْظـــرًا ويفوقُـــهُ فـــي الشَّـــمِّ بالمِسْـــكِ الّـــذكيّ دَلـــيلا

ورأى التَّسَـــتُّرَ بالنَّســـيم لصُـــبْحِهِ ظرْفًـــا فَعَطَّـــلَ صُـــبْحَهُ تَعْطـــيلا

وإذا أتـــى اللَّيـــلُ البَهـــيمُ بِنَشْـــرِهِ أبْـــدَى بـــهِ للزّائـــرينَ قَبُـــولا

كمُهـذِّب الأخـلاقِ يهجُـرُ بالضُّـحَى خِـــلًّا ويُـــدْني بالمَسَـــاءِ خَلِـــيلا

أوْ شَـــاربٍ تَـــرَكَ الصَّـــبُوحَ تَحفُّظًـــا فَـــإذَا أَتـــى لَيْـــلٌ أَسَـــاغَ شَـــمُولا

هُـوَ فاتِـكُ الأفْعـالِ يَـدّرعُ السَّـرَى وتـــراهُ يطلُـــبُ بالنَّهـــارِ خُمُـــولا

والخَيْـرُ فـي الخِيـريّ حَتّـى فـي اسْـمِهِ هُـوَ فاضِـلٌ فاسْـتَأهَلَ التَّفضـيلا[60]

يبدو التفاضل بين الخيري والبنفسج في الأبيات السابقة أشبه بقضية معروضةٍ أمام جمهرةٍ من القضاة للحكم فيها، وهي تقتضي العدل والإنصاف وحسن التأويل، فإذا ما تحققت لها هذه الأمور، فلابدّ أنّ الحكم سيكون لصالح الخيري، ذلك أنّه متفوقٌ على البنفسج في المنظر (قهر البنفسج منظرًا). والمنظر هنا يشمل الشكل واللون والنضارة في كلٍّ من الزهرة والأوراق، والرائحة (يفوقه في الشَّمِّ بالمِسْكِ الّذكيّ). وهي أسسٌ جماليّةٌ خالصةٌ.

أمّا قصيد أبي بكر بن القوطيّة في الرّدّ عليه فمُمتزجٌ بمدح الحاجب عماد الدين إسماعيل:

نَبُـــلَ البَنَفســـجُ فـــاحْتَوى التَّفْضِـــيلا وَكَـــذَا البَنَفْسَـــجُ لـــنْ يـــزالَ نَبـــيلا

لمَّـــا شَـــأَى نَـــوْرَ الرَّبيـــعِ بطِيبـــهِ وحَـــوَى مِـــنَ الشَّـــرَفِ الصَّـــريح أَثـــيلا

فَضَـــلَ النُّـــوَارَ فَحـــازَ دُونَ جَميعِـــهِ قَصَـــبَ السِّـــبَاق وَلَـــمْ يَكُـــنْ مَفْضُـــولا

مُتَشَـــبِّهًا فـــي سَـــبْقِهِ بالحاجِـــبِ الْـــ أَعْلَـــى عِمـــادِ الـــدِّينِ إسْـــمَاعِيلا

مَلِـــكٌ عَـــلَا غُـــرَّ المُلـــوكِ المُعْتَلِيـــ نَ أبًـــا وَجَـــدًّا فـــي العُـــلا وقَبـــيلا

كَـــمْ طـــاوَلوهُ فـــي الفَخَـــارِ فَفَـــاتَهُمْ عَرْضًـــا إلـــى المَجْـــدِ التَّليـــدِ وَطُـــولا

(60) المصدر نفسه، ص 85 / 86.

مُتَشَـــبِّهينَ بِمَـــا يُمَثِّلُـــهُ لَهُـــمْ لَـــوْ أَحْسَـــنُوا التَّشْـــبيهَ والتَّمثـــيلا
كَتَشَـــبُّهِ الخِيـــريّ بـــالمُزْرِي بِـــهِ لِيَحُـــوزَ مِـــنْ تِلْـــكَ الخِصَـــالِ فَتِـــيلا
وإذَا اعْتَـــزَى فـــإلى البنَفســـجِ يَعْتَـــزِي وَإِلَيْـــهِ يُنْسَـــبُ كَـــيْ يعـــزَّ قَلِـــيلا
مـــا للكُرُنْبِـــيِّ الخَليقَـــة يبتغـــي فَضْـــلَ الـــرَّئيسِ المُعْتَلـــي تَخْيـــيلا
أوَ مَـــا دَرَى أنَّ البنَفْسَـــجَ لـــم يَـــزَلْ فَـــوْقَ الأَكُـــفِّ جَلالَـــةً مَحْمـــولا
مِـنْ أيـنَ للخِيـريِّ اللّئـيم طلاقـةُ الـسْ سَـمْحِ الكـريمِ وَلَـنْ يَـزالَ بَخـيلا
مُتَسَـــتِّرٌ طُـــولَ النَّهـــارِ بِعَرْفِـــهِ كَـــيْ لا يُـــرَى لِنَسِـــيمِهِ مَسْـــؤولا
حتّـــى إذَا طـــرَقَ الظَّـــلامُ سَـــخَا بِـــهِ إذْ لا يَـــرَى إلا القَليـــلَ سَـــؤُولا
زَهِـــمَ المَشَـــمِّ إذَا تَقَـــادَمَ قَطْفُـــهُ شَـــيْئًا قَلـــيلًا أو أحـــسَّ ذُبـــولا
وإذا قَـــرَأْتَ منـــافِعَ النُّـــوَّار لـــلْ حُكمَـــاءِ أصْـــبَحَ بَيْنَهَـــا مَجْهُـــولا
والنَّفْـــعُ غَضًّـــا إنْ تَشَـــأْ أو يابِسًـــا هُـــوَ لِلْبَنَفسَـــجِ كُلُّـــهُ مَحْصُـــولا
لا يَسْـــتَحيلُ نَســـيمُهُ فـــي الحالَتَيْـــ ـنِ وَلا إذَا اسْتَنْشَـــــقْتَهُ مَعْمُـــــولا
وَذَخيـــرَةُ الخُلَفَـــاءِ والأَمْـــلاكِ لا يَخْلُـــونَ مِنْـــهُ مُجَنَّسًـــا مَفْصُـــولا
فَلْـــيَحْظَ بالقِـــدْحِ المُعَلَّـــى فـــاخِرًا وَلْيَرجِـــعِ الخِيـــريُّ عَنْـــهُ ذَلِـــيلا[61]

يخصّ الشاعر البنفسج بقيمة جماليّة أخلاقيّة (النبيل)، ويرفعه من مقام الجميل إلى مقام الجليل . بوصفه الجميل الفائق الجمال، بمجموعةٍ من الألفاظ والتراكيب:(نبل، تفضيل، نبيل، شأى، الشرف، فضل، قصب السبق، الأعلى، ملكٌ، العلا، الفخار، المجد التليد، الرئيس، المعتلي، طلاقة، السمح، الكريم، الأملاك، فاخرًا، القدح المعلى). أضف إلى ذلك تشبيهه بالحاجب الأعلى، وهذا ما يعزز قيمته ومن ثمّ تفضيله، بمقابل الحطّ من شأن الخيري بجملةٍ من الألفاظ والنعوت (المزري به، اللئيم، بخيل، زهم المشمّ). وفي هذه القيمة (الجميل . الجليل) يستند الشاعر إلى أساس الرائحة التي تفرّدت به عن كلّ النواوير، وهي تحافظ على طيبها سواء أكان غضًا أم يابسًا. كذلك يستند إلى أساسٍ نفعي لا علاقة له بالقيمة الجماليّة، ولكنه يعزّز موقف الشاعر في تفضيله.

على الرغم مما عرضه كلا الشاعرين من أسس جماليّة لتفضيله، فإنّ أيًا منهما لم يرتكز في تفضيله على أسس جماليّة بقدر ما ارتكز على خاصية النّمام في نشر عطره ليلًا وحجبه نهارًا، ولأنّ أبا الأصبغ يفضله على البنفسج ، فيضعه في إطار صورة فنيّة ويعلّلها بوصفها نوعًا من الظرف المحبّب (ورأى التَّستُّرَ بالنَّسيم لصُبْحِهِ ظرفًا) أو السلوك الاجتماعيّ المهذّب المحبّب (كمُهذِّب الأخلاقِ يهجُرُ بالضُّحَى خِلًّا ويُدْني بالمَسَاءِ خَلِيلا، أو شَارِبٍ تَرَكَ الصَّبُوحَ تَحفُّظًا...)، ولعله خالف غايته في سبيل إيجاد الشبيه فعلل خاصية الخيري بوصفها نوعًا من السلوك الاجتماعيّ السلبي (هُوَ فاتِكُ الأفْعالِ يَدّرِعُ السَّرَى وتراهُ يطلُبُ بالنَّهارِ خُمُولا).في حين يستغلها ابن القوطيّة بوصفها طبعًا سلبيًّا (البخل واللؤم) يقابل طبع البنفسج الإيجابيّ (الكرم والسماحة).

وإلى خاصية النّمام هذه يعود السبب في تفضيل عددٍ من الشعراء للأصفر الخِيري عليه، من أبرزهم أبو الحسن بن علي الذي يقول:

(61) المصدر السابق، ص 87 / 88 .

أَرَى أَصْـفَرَ الخِيـريّ يُبـدي مِـنَ الضَّـنا تَبـــاريحَ مَكْلُـــومِ الفُـــؤادِ سَـــقيمِهِ
وَيُكْذِبُـــهُ سِـــحْرٌ بِـــأَعْيُنِ نَـــوْرِهِ وَقُضْـــبٌ لَـــهُ تَنْـــدَى بِمَـــاءِ نَعِيمِـــهِ
يُسَـــاجِلُ آفَـــاقَ السَّـــمَاءِ بِرَوْضَـــةٍ وَأَنْجُمَهـــا حُسْـــنًا بِصُـــفْرِ نُجُومِـــهِ
وَذِي هَفْـــوَةٍ قَـــدْ ظَـــنَّ أَنَّ شـــقِيقَهُ وَحَارِسَـــهُ قَـــدْ بَـــذَّهُ بنَســـيمِهِ
فَقُلْتُ: اتّئِدْ في الظَّنِّ واسْمَع لِمُنْصِفٍ بَصِـــيرٍ بتَحْبيـــرِ النّظـــامِ عَليمِـــهِ
أفـــي القَـــدْرِ مَخـــدُومٌ لـــدَيكَ وخَـــادِمٌ وَذو كـــرَمٍ فـــي المَجْـــدِ مِثْـــلُ لئيمِـــهِ
وَسِـــيّانَ طِيبًـــا لَيلُـــهُ وَنَهَـــارُهُ وَلَـيْسَ خُصُـوصُ الخَيْـرِ مِثْـلَ عُمومِـهِ
وَمَـا تَفِـلٌ فـي يَوْمِـهِ مِثْـلُ عَـاطِرٍ وَلا لَحَـقٌ فـي الفَخْـرِ مِثْـلَ صَـميمِهِ
فَقَـال: بِحَـقٍّ، قُلْـتَ وَهْـيَ مَقَـالَتي وللْحَـقِّ نُـورٌ لائِـحٌ فـي أَدِيمِـهِ[62]

ولما كثر الكلام في تفضيل الخِيريّ الأصفر، صنع أبو الوليد الحميريّ قطعةً "ربما كان فيها بعض الرّدّ على من فضّله، وبخس النّمام أكثر حقّه، ولم يَرْعَ حُسن خَلْقِهِ وخُلُقِه" [63]:

يـــــامَنْ يَـــــذُمُّ خَلائِـــــق النّمـــــام وَيَحُطُّـــــهُ عـــــن خُطَّـــــةِ الإكْـــــرَامِ
قَـــدْكَ اتّئِـــدْ عَـــنْ لَوْمِـــهِ جَهْـــلًا بِـــهِ فَجَمالُـــــــهُ زَارٍ علـــــــى اللُّـــــــوّامِ
هُـــوَ أَشْـــهَرَ الخِيـــريّ حُسْـــنًا فاحْبُـــهُ مِـــــنْ بَيْنِـــــهِ بِتَحيّـــــةٍ وسَـــــلامِ
مُتَنَـــزِّهٌ عـــــنْ أَنْ يُـــــرَى مُسْـــــتَهتِرًا إلا إذا اكتَحَـــــلَ الـــــوَرَى بِمَنَـــــامِ
مُســـتَطْرَفٌ فـــي خُلْقِـــهِ مُسْـــتَظْرَفٌ فـــي خُلْقِـــهِ مُسْتَحْسَـــنُ الإلْمـــامِ
لـــمْ يَـــرْضَ إلا المِسْـــكَ مَسْـــكًا جِسْـــمُهُ وَبـــهِ يَبـــوحُ إليـــكَ فـــي الإظْـــلامِ
والمُنْتَمـــي أَبَـــدًا إليـــهِ نُضَـــارُهُ فـــي الفَضْـــل أنْ يُعـــزَى إلـــى النّمـــام
اِصْـــفَرَّ مِـــنْ حَسَـــدٍ لَـــهُ وَكآبَـــةٍ لمَّـــا شَـــآهُ بِحُسْـــنِهِ البَسَّـــامِ
أيُقَـــاسُ مُنْفَـــرِدٌ بِظَـــرْفٍ مُعْجِـــزٍ بمشـــارِكٍ أخـــلاقَ نَـــوْرِ العَـــامِ
لـــو كانَـــتِ الشّـــمْسُ المُنيـــرةُ سَـــرْمَدًا لـــمْ تُلْـــقَ بـــالإجْلالِ والإعْظَـــامِ[64]

ذهب أبو الوليد مذهبًا مخالفًا أعاد به بناء التفضيل على أسسٍ جماليّةٍ خالصةٍ، منكرًا على من أزرى بقيمة النّمام استنادًا إلى معايير لا تنبع من التقييم الجماليّ، مقررًا أنّ المعيار الرئيس الذي ينبغي أن يبنى عليه التفضيل هو التفوّق في الجمال. وجمال النّمام (زَارٍ على اللُّوّامِ)، فهو (أَشْهَرَ الخِيريّ حُسْنًا). ثمّ يستند في تفضيله إلى معيارٍ جديدٍ، لا يعدّ معيارًا جماليًّا، ولكنه يؤثّر في

(62) المصدر نفسه، ص 88 / 89 .
(63) المصدر نفسه، ص 91.
(64) المصدر نفسه، ص 91.

عملية التقييم، وهو الندرة أو غياب الألفة. فالألفة تورث النفس الاعتياد والملل وتؤثر في الذات في موقفها من الموضوع (أيقاس منفرد بظرفٍ معجزٍ بمشارك أخلاق نور العام). وتكمن أهمية الندرة في أنّها ضربٌ من التفرّد الذي يرتقي بالموضوع من مرتبة الجميل إلى مرتبة الجليل فـ(لو كانَتِ الشّمْسُ المُنيرةُ سَرْمَدًا لمْ تُلْقَ بالإجْلالِ والإعْظَامِ).

وهكذا نجد أن التفضيلات الجماليّة التي تجلّت في الاختيارات الشعريّة في كتاب البديع في فصل الربيع تنوّعت بين تفضيل مطلقٍ وتفضيل مقارن، وإن لم تكن تستند دائمًا إلى أسس جماليّة خالصة، ولعلّ نظرة متأنية في نوعي التفضيل الذي تجلّى في الأبيات السابقة جميعها تؤكد أنه استند إلى نوعين من التفرّد: التفوّق، والتمايز.

والتفوّق تفرّد جماليّ بالكم؛ يتأتّى من تفوّق الموضوع على سائر أفراد جنسه؛ في صفة من الصفات أو أكثر أو فيها كلّها، ولأنّ "العلاقة الجماليّة إدراكٌ وتقويمٌ للعالم من موشور المثل الأعلى"[65] يغدو الاقتراب من المثل الأعلى للنوع معيارًا لكلّ تفوّقٍ في أفراده. وفي عالم الأزهار والنواوير يجمع المثل الأعلى بين المرأى النضر، والشكل الجميل، والألوان المشرقة المفعمة بالحيويّة، والرّائحة العطرة المنعشة، فكلما كانت الزهرة أكثر اقترابًا من هذا المثل، ارتقت في تفوّقها، ومن ثمّ استحقت التفضيل.مثل ذلك التفوق الذي يتمتع به الياسمين على الأقاحي في الشكل واللون، في قول أبي علي إدريس بن اليمان[66]:

تزيـــدُ علـــى الأَقـــاحي فـــي ابْتِســـامٍ كَمَـــا زَادَ الكَبِيـــرُ علـــى الصَّـــغيرِ

وَيَـــنْخَفِضُ الشَّـــذا المِســـكيُّ عَنْهـــا كمـا انخفَـضَ الصَّـغيرُ علـى الكَبيـرِ[67]

وتفوّق الورد على الجلنار الذي يشابهه في شكله ويقاربه في لونه، لكنّه يقصر عنه في طيبه، كما يصفهما أبو عامر بن مسلمة[68]:

وَجُلَّنـــــارٍ بِنَـــــوْرِه يَزْهَـــــرْ أَوْراقُـــــهُ فِتْنَـــــةٌ لِمَـــــنْ أَبْصَـــــرْ

قَـــدْ شَـــبَهَ الـــوَرْدَ فـــي تَضَـــاعُفِهِ وقـــارَب اللَّـــوْنُ حُلَّـــةَ العُصْـــفُرِ

مِثْـــلَ ثِمـــارِ الرُّمّـــانِ زَاهِـــرَةً لكنَّـــهُ مَنْظَـــرٌ بـــلا مَخْبَـــرِ[69]

أمّا التمايز، فهو تفرّد بالكيف؛ إذ يتميّز النور من غيره من الأزهار والنواوير في صفةٍ أو أكثر من الصفات العامة التي لا ترتبط بالضرورة بالمثل الأعلى للنوع بأسره، من مثل الخيري النّمام المنتمي إلى فصيلة الرياحين، و المتميز بأنّه يكتّم عرفه نهارًا ويطلقه ليلًا، فيصفه أبو بكر بن القوطيّة[70] بقوله:

يَسْـــري إذا طَـــرَقَ الظَّـــلَامُ نَســـيمُهُ ويَظَـــلُّ يَكْمُـــنُ بالنَّهـــارِ كَـــذِي دُلَـــسْ

جِـنْسٌ يُخَـالِفُ كُـلَّ جِـنْسٍ فـي التَّعَـرْ رِي والتَّلَـــبُّسِ والتَّـــوَحُّشِ والأُنُـــسْ

فَتَـــراهُ طُـــولَ نَهـــارِهِ مُتَجَـــرِّدًا مِـــنْ عَرْفِـــهِ ومـــع الـــدَّياجي مُلْتَـــبِسْ

وَتَـــراهُ طُـــولَ نهـــارِهِ مُتَوَحِّشًـــا فَـإذا دنـا وَقْـتُ الظَّـلام لَـهَ أَنِـسْ[71]

(65) بلوز، علم الجمال، ص 85.

(66) إدريس بن اليمان: شاعر، عالم، له مدائح كثيرة في ملوك الطوائف، بغية الملتمس 236 ، جذوة المقتبس 369، رايات المبرزين 54، شذرات الذهب 3/ 62، نفح الطيب 25/4، وفيات الأعيان 368/4.

(67) الحميري، المصدر نفسه، ص 100 .

(68) محمد بن عبد الله بن مسلمة، وزير، أديب، عالم، سكن إشبيلية، له كتاب "حديقة الارتياح في وصف حقيقة الراح" بغية الملتمس 90، جذوة المقتبس 61، مطمح الأنفس 203، المغرب 1/ 96، نفح الطيب 3/ 544.

(69) الحميريّ، المصدر نفسه، ص 164.

(70) محمد بن عمر بن عبد العزيز بن إبراهيم، أديب، لغويّ، عالم بالنحو، من حفاظ الحديث، له مؤلفات منها "الأفعال" و"المقصور والممدود" و"تاريخ افتتاح الأندلس" توفي سنة 367 هـ. بغية الملتمس 112، جذوة المقتبس 369، رايات المبرزين 54، شذرات الذهب 62/3، نفح الطيب 25/4، وفيات الأعيان 4/ 368.

(71) الحميري، المصدر نفسه، ص 115 / 116 .

وأيًا يكن التفضيل مطلقًا أم مقارنًا، فإنّ التفضيل الجماليّ الخالص هو التفضيل الذي يقوم على التفوق؛ فالجميل هو "المتفوق في جنسه"[72]، في حين تشوب التفضيل القائم على التمايز عناصر غير جماليّة. وليس التفضيل الجماليّ ـ كما ذكرنا سابقًا ـ إلا نوعًا معقّدًا من التقييم الجماليّ، ولما كان في القيمة جزءٌ يرتبط بالذات، فإنّ تقييم موضوعٍ ما لابدّ أن يتباين بين ذاتٍ وأخرى، ومن ثمّ، فإنّ التفضيلات ستتباين وقد تتعارض. ولما كان العمل الفنيّ، وفقًا لكثير من الدراسات النفسيّة، "رسالة من الأنا (المبدع) إلى الآخر (المتلقي)، بقصد التوصل إلى ما يمكن أن نطلق عليه: حالة (النحن)؛ أي توحّد الأنا والآخر في حالةٍ نفسيّةٍ واحدة، تجمع بينهما وتزيل ما بينهما من فوارق واختلاف في وجهات النظر والآراء والانفعالات؛ أي أنّ المبدع يحاول أن يكسب المتلقي إلى صفه، ويقنعه بوجهة نظره"[73]، فقد جعل الشعراء المقطّعات التفضيليّة القصيرة في كتاب "البديع في فصل الربيع" تغدو ميادين لعرض البراهين وبسط الحجج التي تؤكد أفضلية نورٍ على آخر أو على سائر النواوير؛ إذ يستغلّ الشاعر منهم كلّ تفرّد، سواء أكان تفوّقًا أم تمايزًا، في سبيل إثبات صحة ما يذهب إليه من تقييمٍ جماليّ، ولكنّه لا يفرض القيم التي يتغنى بها فرضًا قسريًّا، وإنما يتلطّف بما يحببها إلى النفس حتى تعتقد اختيارًا وتحث على الإرادة من تلقائها. وإنّ القارئ يتلطّف في استخراج الدلالة من الشعر مقحمًا فيه ثقافته، ومتجهًا إليه بجملة عالمه حتى كأنّ القيمة تصبح من إنتاج القارئ والشاعر معًا[74]، الأمر الذيأسهم في تبلور ظاهرة أسلوبيّة واضحة في شعر التفضيل الجماليّ بين الأزهار والنواوير يمكن أن نسميها "التعليل الجماليّ".

والتعليل الجماليّ أسلوبٌ فنيٌّ ينطلق فيه الخيال الشعريّ من الاختلاف أو التباين الذي لا يستند إلى أسسٍ جماليّةٍ، ليحوّله بالصّورة الفنيّة (غالبًا الأنسنة) إلى أساسٍ أخلاقيٍّ أو اجتماعيٍّ يعزّز القيمة الجماليّة للموضوع ويدعم التفضيل الجماليّ. بمعنًى آخرَ؛ يهدف التعليل الجماليّ إلى التحول بالتفرّد الذي يقوم عليه التفضيل من التمايز في عالم الأزهار والنواوير إلى التفوّق في عالم الإنسان. ولما كانت القيمة الجماليّة مكونةً من جانب موضوعيٍّ وآخر ذاتيٍّ، وكان التمايز لا يؤثر في الجانب الموضوعيّ، فإنّ الشاعر يسعى إلى تحويل التمايز إلى عامل يدعم التفضيل، فإذا كان الاقتراب من المثل الأعلى الجماليّ أو التفوّق أمرًا عصيًّا على التحقيق، فإنّه يسعى بالتمايز، بالصورة الفنيّة، إلى الاقتراب من المثل الأعلى الأخلاقيّ أو الاجتماعيّ بغية التأثير في الذات المتلقيّة وتعزيز الجانب الذاتي للقيمة الجماليّة، ولكن يجب أن يكون الموضوع جميلًا أو مثيرًا للاهتمام بدرجةٍ تفجّر داخل الشاعر طاقاتٍ تعبيريّةً تسعى إلى إيصال إحساسه بالجمال أو الإثارة إلى الآخرين، فترصد عناصر جماله بدقة، ثم تتحوّل إلى عناصره غير الجماليّة، فتمنحها، بقوة الخيال، حيويةً وحرارةً تنتزعها من برودها وحيادها وتجعل منها عناصر رديفةً تمتزج مع العناصر الجماليّة، مهما كانت كثيرةً أو قليلةً أو حتى نادرةً، في إنتاج القيمة الجماليّة من جديد بما يتوافق مع تفضيله الجماليّ ويعزّزه. فدوام الخضرة في الآس يغدو وفاء، والاعتراش في الياسمين يغدو علو همّة، وانغلاق الزهرة ليلًا في النيلوفر يغدو حياء وتحصنًا، والتفتح أوائل الربيع في البهار يغدو تعاطفًا مع العشاق، والتفتح أواخر الربيع في الورد يغدو رفعة قدر،...إلخ.ولعلّ الزهرة التي حازت قصب السبق في هذه الظاهرة في كتاب البديع هي الخيريّ النّمام، الذي يتفرّد بخاصيّة نشر العبير ليلًا وكتمه نهارًا؛ وترجع هذه الخاصّة علميًا"إلى أنّ طائفةً من الورود تتفتّح في المساء، كما أنّها تسترخي خلاياها وتنطرح العطور من جيوبها في درجةٍ مناسبةٍ من الحرارة بعد إذ كانت المسام مغلقةً عند شدّة الحرارة لمقاومة الجفاف وتقليل «الاستعراق». وهذا أمرٌ تشريحيّ فيزيولوجي. وكذلك جزئيات العبير الفاغم المنطلقة تتصاعد، ثمّ ترتدّ إلى أنوف الجلاس إذ ذاك لبرودة الجوّ ورطوبته وتنسّم الرّيح إذ تختلف درجات الحرارة في طبقات الجوّ وعند الأرض وهذا أمرٌ فيزيائيّ. وكذلك إذا جاء المساء، ودبّ الظّلام تنحجب أشكال الأشياء عن الأبصار فلا عجب إذا تجمّع جانب من نشاط النّفس حول حاسّة الشّمّ، وهذا أمرٌ نفسيٌّ"[75]. ولكن الخيال الشعريّ المولع أبدًا بالجميل لا يركن إلى هذه التّعليلات العلميّة، بل يحلق باحثًا عن تعليل يرقى إلى مستوى الانفعال الشّعري بهذه الزهرة، لذا نجد

(72) تشيرنيشفسكي، علاقات الفن الجماليّة بالواقع، وزارة الثقافة، دمشق، 1982م، ص 14.

(73) حنورة: مصري عبد الحميد، سيكولوجية التذوق الفني، دار المعارف، القاهرة، د.ت. ص 22.

(74) ينظر: الواد، حسين، المتنبي والتجربة الجماليّة عند العرب (تلقي القدماء لشعره)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 2004م ص 393.

(75) اليافي: عبد الكريم، دراسات فنّيّة في الأدب العربي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1996م. ص 285.

أخيلة الشعراء تتبارى في نسج صورٍ فنّيّة تمثّل هذه الخاصية المتفرّدة، فهذا أبو الوليد الحميري يحشد جملةً من التعليلات المتتابعة بغية تفسير هذه الظاهرة، فيقول:

نَهـــارُ خِيرِيِّـــكَ فـــي لَيْلِـــهِ كَـــذلِكَ اللَّيْـــلُ نَهـــارُ الأَديـــبْ

يَـــنِمُّ فِيـــهِ وينـــامُ الضُّـــحَى تَصَـــاوُنًا عـــن كُـــلِّ أَمْـــرٍ معيـــبْ

كأنَّمـــا اللَّيْـــلُ حَبيـــبٌ لَـــهُ فَهْـــو إذا حَـــلَّ اكتَســـى كُـــلَّ طِيـــبْ

كأنَّمـــا الصُّـــبْحُ رقيـــبٌ لَـــهُ فَيَرْعَـــوي عِنْـــدَ طُلُـــوعِ الرَّقيـــب[76]

لقد تحوّل أبو الوليد بالظاهرة الطبيعيّة إلى أساسٍ اجتماعيّ حين عقد عرى المشابهة بين النّمام والأديب، ثمّ تحوّل بها إلى أساسٍ أخلاقيٍّ عندما رأى أن غاية النّمام فيما يفعل التّصاون عن كلّ أمرٍ معيب، ثمّ عاد بنا إلى الأساس الاجتماعي عندما جعل منه عاشقًا لليل وجعل الصبح عليه رقيبًا. وهذا كلّه يصبّ في الجانب الذاتيّ للقيمة.

في حين يعلّل ابن الأبّار الإشبيلي[77] هذه الظاهرة تعليلًا نفسيًا طريفًا، فيقول:

لا تَعْـذُلوا الخِيـرِيَّ فـي كَتْمِـهِ الـطِّ طِيـبِ اسْـتِتَارًا فَهْـوَ عَـيْنُ الصَّـوابْ

الصُّـبحُ شِـبْهُ الشَّـيْبِ فـي لَوْنِـهِ فعَافَـهُ واللَّيْـلُ شِـبْهُ الشَّـبَابْ[78]

يربط الخيال الشعريّ، بالمشاكلة اللونيّة، بين الشيب والصبح من جهة، والشباب والليل من جهةٍ ثانية، معلّلًا إعراض الخيريّ عن النهار وتعلّقه بالليل بميل النفس إلى الشباب وإنكارها الشيب الذي ينبئ بقرب انقضائه.

ومما لا شكّ فيه أنّ الشاعر لا يشرع في نسج تعليلاته حول الموضوع، إلا بعد أن يسلم بقيمته الجماليّة . أيًا كانت درجتها . فجمال الورد الباهر يحدو الخيال الشعري ليحوّل تفتحه في أواخر فصل الربيع من سمةٍ سلبيّة إلى سمةٍ إيجابيّةٍ تعزز القيمة الجماليّة: كما في قول أبي عامر بن مسلمة:

الـوَرْدُ عِنْـدي فـي الخُـدودِ نفاسَـةً وَرياسَـــةً مَهْمـــا يُقَـــسْ أو يُلْحَـــظِ

هـــو آخِـــرٌ وَلَـــهُ التَّقَـــدُّمُ أوّلًا كم آخِرٍ قد حازَ مَفْخَرَ مَنْ حَظِي[79]

ويوظّف أبو الوليد الحميريّ هذه السمة في سياق المدح، إذ يمدح والده قائلًا:

يـــامَنْ تـــأزَّر بالمَكـــارِمِ وارْتَـــدَى بالمَجْـــدِ والفَضْـــلِ الرَّفيـــعِ الفَـــائِقِ

أُنْظُـــرْ إلـــى خـــدِّ الرَّبيـــع مُركَّبًـــا فـــي وَجْـــهِ هَـــذا المهْرَجـــانِ الرَّائـــقِ

وَرْدٌ تَقَـــدَّمَ إذْ تـــأخَّرَ واغْتَـــدَى فـــي الحُسْـــنِ والإحْسَـــانِ أوّلَ سَـــابقِ

وافـــاكَ مُشْـــتَمِلًا بِثَـــوْبِ حيائِـــهِ خَجِـــلًا لأَنْ حيّـــاكَ آخِـــرَ لاحـــقِ[80]

(76)الحميري، المصدر نفسه، ص 119.

(77) أحمد بن محمد الخولاني الأندلسي، كان شاعر المعتضد بن عبّاد صاحب إشبيلية وكان عالمًا جمع وصنف، وله في صناعة النظم فصل لايردّ، توفي سنة 433 هـ. بغية الملتس 164، جذوة المقتبس 107، الذخيرة 1 . 2 / 135، المغرب 1/ 264، نفح الطيب 3/ 477، وفيات الأعيان 1/ 141.

(78) الحميري، المصدر نفسه، ص 117 / 118.

(79) المصدر نفسه، ص 132.

(80) المصدر نفسه، ص 133.

وهكذا يبرز التفضيل في الأزهار والنواوير في كتاب الربيع في فصل الربيع، بوصفه نموذجًا أمثل للتفضيل الجماليّ في شعر الطبيعة، معبّرًا عن القيمة الجماليّة لموضوعٍ ما، وتجليها في أشكالٍ متنوعةٍ من الاختيارات والنشاطات التي لا غاية لها سوى الغاية الجماليّة.

وبناءً على ما سبق يمكننا أن نقف على النتائج الآتية:

- نشأ الاهتمام الجماليّ بغرض وصف الأزهار والنواوير، والمفاضلة بينها في الشعر الأندلسيّ نتيجة عوامل عدّة من أبرزها:

1. اهتمام ولاة الأمر من أمراء ووزراء وكتاب بهذا الغرض، وهو الأمر الذي يفسّر جملة من الظواهر الأسلوبيّة في شعر التفضيل، لعلّ من أبرزها:

- الاستغناء عن المقدمات الطويلة للقصائد المدحيّة والتمهيد لها بوصف نور.
- إقامة علاقة بين حالة الزّهر وصفات الممدوح.
- كثافة الحقول الدلاليّة التي ترتبط بالملك والسلطان والسيادة.

2. التحفيز الإبداعي الذي نشأ في ظلّ المنافسة الأدبيّة بين المغرب والمشرق، تلك التي تجلّت في ردّ كثيرٍ من الشعراء الأندلسيين على ابن الرومي في تفضيله البهار على الورد، وما استتبع ذلك من اهتمام بهذا المجال. الأمر الذي لم يقتصر على الشعر، إنما انتقل إلى النثر، فأبدع الأندلسيون في رسائل التفضيل، وهي التي حفلت بعناصر قصصيّة ومسرحيّة مثل: الزمان، والمكان، والحدث، والشخصيات، والحوار.

3. التنوّع الحيويّ في الطبيعة الأندلسية على اختلاف الفصول، وهذا الأمر هو الذي يجعل الشاعر يعيش في تجربته الجماليّة مجموعة من التجارب المتزامنة والمتتابعة، فيحفز آليات المقارنة والاختيار.

- انطلق الشعراء الأندلسيون في مفاضلتهم بين النواوير من ملاحظتهم الدقيقة لتفاوتها في درجات الجمال، وأرجعوا هذا التفاوت إلى عناصر ترتبط بالتمظهر الحسّي (الشكل، اللون، الرائحة).
- يتخذ التفضيل ـ عامةً ـ في كتاب البديع في فصل الربيع صورتين: التفضيل المطلق؛ ويكون ذلك بتفضيل نور على سائر النواوير والأزهار على وجه الإطلاق لا التقييد، والتعميم لا التخصيص، والتفضيل المقارن؛ ويكون بتفضيل نورٍ على آخر.
- يقوم التفضيل، سواء أكان مطلقًا أم مقارنًا، على نوعين من التفرّد: التفوّق في العناصر الجماليّة، والتمايز في السمات الحيوية والطبيعيّة. ويقوم التفضيل الجماليّ الخالص على التفوّق، في حين تشوب التفضيل القائم على التمايز عناصر غير جماليّة.
- يقوم التفضيل الجماليّ، بوصفه نوعًا من التقييم الجماليّ، على أسس جماليّةٍ خالصةٍ تتعلق بالتمظهر الحسيّ لعناصره (الشكل، اللون، الرائحة)، ولكنه ما إن يتحول إلى ميدان التعبير الشعريّ، حتى تتداخل أسسه الجماليّة مع أسس أخرى قد تكون طبيعيّة حيويّة أو نفعيّة. وهكذا فإنّ التفضيل الجماليّ في شعر النوريات يزاوج بين التفوق والتمايز، وهوالأمر الذي أسهم في اكتمال ظاهرة أسلوبيّة في شعر النوريات، تتجلّى بوضوح في كتاب البديع في فصل الربيع يمكن أن نسميها "التعليل الجماليّ"، تهدف إلى التحول بالتفرّد من التمايز في عالم الأزهار والنواوير إلى التفوّق في عالم الإنسان، وهذا ما يعزّز تفضيله ويؤكد صحة ما ذهب إليه الشاعر.

المصادر والمراجع:

المصادر:

1. الحميري، أبو الوليد إسماعيل بن محمد بن عامر
2. . البديع في وصف الربيع، تحقيق: عبد الله عبد الرحيم عسيلان، دار المدني، جدة، ط1، 1987م.
3. . البديع في فصل الربيع، تحقيق: علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين، دمشق، ط1، 1997م.
4. . البديع في وصف الربيع، تحقيق: هنري بيريس، المطبعة الاقتصاديّة، الجزائر، د. ت.

المراجع:

1. إسماعيل، عزالدين، الأسس الجمالية في النقد العربي، دار الفكر العربي، ط2، 1955م.
2. بلوز، نايف، علم الجمال، مطبوعات جامعة دمشق، 2000 . 2001 م.
3. تشيرنيشفسكي، ن.غ، علاقات الفن الجماليّة بالواقع، وزارة الثقافة، دمشق، 1982م.
4. الحميدي، محمد بن فتّوح، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، طبعة مكتب نشر الثقافة الإسلاميّة، القاهرة، 1952م.
5. حنورة، مصري عبد الحميد، سيكولوجيّة التذوق الفنيّ، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
6. ابن خاقان، الفتح بن محمد بن عبيد الله، قلائد العقيان في محاسن الأعيان، تحقيق: محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسيّة للنشر، تونس، 1990م.
7. مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، تحقيق محمد علي شوابكة، دار عمار، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1983.
8. ابن خلكان، أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1968م.
9. ابن الرومي، ديوانه، تحقيق حسين نصّار، القاهرة 1393هـ .
10. ابن سعيد، علي بن موسى، رايات المبرّزين وغايات المميزين، تحقيق: محمد رضوان الداية، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، 1987م.
11. المغرب في حلى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، القاهرة، 1980م.
12. الشكعة، مصطفى، الأدب الأندلسيّ، دار العلم للملايين، بيروت، ط12، 2008م
13. الصفدي: خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات، تحقيق: مجموعة من الباحثين، فيسبادن، 1960.
14. عبد الحميد، شاكر، التفضيل الجماليّ .دراسة في سيكولوجيّة التذوق الفني، سلسلة عالم المعرفة، عدد 267، مارس، 2001م.
15. ابن عماد الحنبلي، عبد الحيّ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، د.ت.
16. الواد، حسين، المتنبي والتجربة الجماليّة عند العرب (تلقي القدماء لشعره)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 2004م
17. اليافي، عبد الكريم، دراسات فنيّة في الأدب العربي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1996م.
18. عيد، يوسف، دفاتر أندلسيّة . في الشعر والنثر والنقد والحضارة والأعلام، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، 2006م.